

PT 12 Street 17/3/45

لجنة التأليف والترجمة والنشر

(C)
102

105

أَبُو الْعَبَّاسِ الْمَعْرِيَّ

- نسبه وأخباره .
- شعره .
- معتقده .

تأليف

المرحوم أحمد تيمور باشا

ALMULJOO
VITRIVIMU
VIADELLI
القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٣٥٩ هـ - ١٩٤٠ م

893.7A692
BT3

45-39141



COLUMBIA
UNIVERSITY
LIBRARY

بيان

كان الظن أن المؤلف ، طيب الله ثراه ، قد استوفى هذا الكتاب تأليفاً وإعداداً ؛ وأنه قد فرغ من جمع المواد ، وتمييز الأقسام ، وتبيين الفصول ، ومراجعة العبارة . ولكن وردت في أضعاف الكتاب إشارات وعلائم تصرف هذا الظن .

من ذلك أنه جعل لقسم من الكتاب عنواناً هو : (شعره ونثره) وما يكون للمؤلف أن يهمل جانب النثر من آثار المترجم له ؛ إلا أن فصول هذا القسم خالية كلها من حديث النثر كله . فالحتم أنه عقد العزم على أن يكسر بعض فصول عليه .

ومن ذلك أنه بنى فصلاً (المكرر من معانيه) وقد وجد مكتوباً في ورق قصير من غير جنس الورق الذي كتب فيه سائر الكتاب ، وفي إحدى صفحاته جملة مستقلة يُفهم موضوعها أن المؤلف صاغها ليهدبها لهذا الفصل ؛ وهذا المظهر يشهد بأن هذا الورق مسودة أقيمت للزيادة عليها ، والتغيير فيها . فإذا لوحظ إلى هذا أن الفصل قليل ضئيل مع سعة الموضوع وتشعبه ، وأن الأبيات المستشهد بها

جُلها من غير شعر اللزوم ؛ قام اليقين بأن المؤلف كان مقدراً إكمال موضوعه فيما بعد ، وتبيضه في ورق مماثل لورق بقية الفصول ؛ جرياً على سنته في إخراج هذا الكتاب .

ومن ذلك أنه عند الحديث في (معتقده) ساق حكاية أبيات من قصيدة ، ثم قال : « وسأوردها بتمامها عند الكلام على منظومه ، فإنها من شعره المفقود » ، ولم ترد هذه الأبيات الموعود بها في ثنايا الكتاب . فإن استُخبر مُفاد هذه الجملة ، أعطى أنه كان ينبغي إنشاء فصل لهذا النوع ، يجعله في جملة فصول القسم الذي عنوانه : (شعره ونثره) .

ومن ذلك أنه قال في خاتمة الفصول الموجودة من هذا الكتاب : « ... بدليل ما ذكرناه من الكلام وما سنذكره » ، وواضح أن هذه كلمة من لم يقض مأربه من القول بعد .

يضاف إلى هذه جميعاً أن حواشي الأوراق حافلة بألوان من الزيادة والإبدال والإصلاح ، مما يدع الرأي مطمئناً إلى أن النسخة كانت في حياة المؤلف لا تزال بين يديه : يراجع فيها تسريح الناظر ، وإجراء الخاطر ، وإعمال القلم .

على أنه ربما يكون قد أُجِّل معاودة الكتاب إلى فرصة لم تسنح ، وأولاه مهلة اتصلت بانتقاله إلى جوار ربه ؛ فإنه لما عرّف بكتاب

الفصول والغايات ، في فصل (مؤلفاته) ؛ اقتصر على بيان طريقته وموضوعه ، فما أشار المؤلف إلى حصوله على مخطوطة الجزء الأول من هذا الكتاب النادر ؛ ولهذه الإشارة شأنها ، إذ هي إعلام بمكان تحفة كانت مفقودة ، ووجدان ضالة ظلت منشودة . ومن سبيل المؤلف في كتابه هذا أنه ما تعرّض مناسبة كتاب غير مشهور ، أو أثر عزيز الوجود ؛ إلا هدى إلى مخبئه ، وعرف بنسخته ، ولم يفته أن يذكر حصوله عليه إن كان . وما دام هذا صنيعه في الكتب العارضة ، فمثل هذا الصنيع في كتب المترجم له أولى وأحق . وإذا فلا بد أن يكون المؤلف قد وادع مخطوطة الكتاب قبل أن يحصل على نسخة الفصول والغايات ، ثم لم يعاوده حتى لبي نداء ربه خالد الذكر ، حميد الأثر ما

مشمولات الكتاب

نسب وأخباره

٣	فصل في نسبه
٧	» » بيته
١٠	» » مولده ووفاته وجليته
١٦	» » نشأته وطلبه العلم ورحلته
١٩	» » تلاميذه
٢٢	» » مبلغ علمه وذكائه
٦٠	» » مؤلفاته
٧٨	» » ثروته وزهده
٨٤	» » بقية أخباره

شعره

٩٩	فصل في المكرر في معانيه
١٠٣	» » سرقاته
١١٧	» » مأخذ الشعراء من شعره
١٢١	» » مقارنة بعض معانيه بمعاني غيره

معتقده

١٢٥	فصل في اختلافهم فيه
١٣٨	» » معتقده في الله
١٥٦	» » معتقده في النبوات والرسل

نب وأخباره

فصل في نسبه .

» » بيته .

» » مولده ووفاته وحليته .

» » نشأته وطلبه العلم ورحلته .

» » تلاميذه .

» » مبلغ علمه وذكائه .

» » مؤلفاته .

» » ثروته وزهده .

» » بقية أخباره .

دایره المعارف

فصل في نسبه

هو أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان بن محمد بن سليمان بن أحمد بن سليمان بن داود بن المطهر بن زياد بن ربيعة بن الحرث بن ربيعة بن أنور بن أسحم بن أرقم بن الثعمان بن عدى بن غطفان بن عمرو بن بريج بن خزيمه بن تيم الله بن أسد بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة التَّنُوخِيُّ المَعَرِّيُّ . هكذا ساق نسبه ابن خلكان ، وهو أصح ما وجدناه بالمعارضة على ما في كتب الأنساب ؛ فإن فيما ذكره ياقوت في « إرشاد الأريب » إسقاطاً لبعض الأسماء ، واضطراباً في ترتيب بعضها ، فاعتمدنا على رواية ابن خلكان بعد تصحيح ما حُرِّفَ منها ، فإن خُزَيْمَةَ بنَ تَيْمِ اللهِ جاء في النسخة المطبوعة ببولاق : جَذِيْمَةَ بالجيم والذال المعجمة ، وما نُصِّ عليه في كتب اللغة والأنساب خُزَيْمَةَ بالخاء والزاي مُصَغَّرًا . وتيم الله بن أسد هكذا في جميع ما وقفنا عليه من الكتب ، وجاء به أبو العلاء في سقط الزند تيم اللات ، في قوله :

سألته قبل يوم السير مَبْعَثُهُ
إليك ديوان تيم اللاتِ ما لَيْتَا

وقد يكون هذا تحريفاً في النسخة ، إلا أن مَنْ خَبَرَ شعر أبي العلاء ، ومذهبه في تكلفه الصناعة والتجنيس ، رجح أنه ما أتى بقوله ما لَيْتَ ، أي ما نُقِصَ ، بعد قوله اللات ، إلا إرادة للتجنيس . والله أعلم . وقد يذهب الظن إلى أن تيم اللات هذا ربما كان غير تيم الله المذكور مقدماً ، وهو مردود بما ذكره الشارح في سياقٍ نسبه عند شرح البيت . على أن فيما ذكره ابن خلكان ما لا يسكت عنه أيضاً ، وما نقلناه عنه هو ما وجدناه في النسخة المطبوعة ببولاق ، والنسخة المطبوعة ببياريس . ونقل ابن الوردي في تاريخه عبارة ابن خلكان ، فأسقط

أحمد بن سليمان من سلسلة النسب ، ووافق ما في «الكوكب الثاقب» لعبد القادر ابن عبد الرحمن السَّوَيِّ ، إلا أنه أسقط محمد بن سليمان بدل أحمد . وعلى كل حال فالظاهر أن ما ورد في ابن خلكان فيه زيادة اسمين ربما سبق بهما قلم الناسخ .
وجده الأعلى قُضَاعَةَ بن مالك أبو حَيٍّ من اليمن ينتهي نسبه إلى قَحَطَانَ ، هذا هو المشهور . وزعم نَسَابٌ مُضَرٌّ أنه قُضَاعَةُ بن مَمَدِّ بن عدنان ، وأن مالِكا زوج أمه ، والنسب إلى زوج الأم عادة معروفة عند العرب ، ولعلماء الأنساب في ذلك اختلاف كثير ، ولهذا قال محمد بن سلام البصرى النَّسَابَةَ لما سئل : أنزِاراً أكثر أم اليَمَن ؟ فقال : إن تعددت قُضَاعَةُ فنزار أكثر ، وإن تيمنت فاليمَن . وعلى القول الأول قول بعضهم :

قُضَاعَةُ بنُ مَالِكِ بنِ حَمِيرٍ النَّسَبُ المَعْرُوفُ غَيْرُ المُنْكَرِ

وعلى القول الثاني قول السُّكْمَيْتِ الأَسَدِيِّ يخاطب قُضَاعَةَ :

فإنكِ والتَّحَوُّلُ عن مَعَدِّ كَحَالِيَةٍ تَزَيُّنُ بالمَعطُولِ
تُغَايِظُ بالتَّمَطُّلِ جَارِيَتِهَا وبالأَحْمَاءِ تَبْدَأُ والحَلِيلِ
فمَهْلًا يا قُضَاعَةُ لا تَكُونِي كَقَدْحِ خَرٍّ بَيْنَ يَدَيِ مُجِيلِ
وَمَا مِنْ تَهْتِفِينَ بِهِ لِنَضْرِ بِأَقْرَبِ جَابَةِ لَكَ مِنْ هَدِيلِ

وسُمِّي قُضَاعَةُ لانقضاعه عن قومه مع أمه ، أى انقطاعه عنهم ؛ أو من

قَصَمَهُ ، أى قهره . وقيل بل هو اسم منقول ، وأصل القُضَاعَةُ الفَهْدُ .

والتَّنُوخِيَّ نسبة إلى تَنُوخٍ كصبور ، وتشديد النون خطأ ؛ وهم قبيلة من

اليمن من قُضَاعَةَ ، سُمُّوا بذلك لأنهم اجتمعوا وتحالفوا ، وتَنَخَّوا بمكان في الشام أى

أقاموا فيه ، ومن الناس من يطلق تَنُوخَ على الضَّجَّاعَةِ ودَوَسِ الذين تنخَّوا

بالبحرين ، والاختلاف في ذلك كثير أيضاً . ونقل عن أبي عُبَيْدٍ أنهم تنخَّوا

على مالك بن زهير بن عمرو بن فهم بن تيم الله بن أسد ، وعلى مالك بن فهم عم مالك بن زهير . وذكر الخداني أن المعرة من بلاد الشام هي صليبة تنوخ ، بمعنى أن بها جمعهم المستكثر . وفي « إرشاد الأريب » لياقوت أن تيم الله بن أسد هو مجتمع تنوخ من أهل معرة النعمان . وقال أبو يعقوب النحوي في شرح « سقط الزند » أن تيم الله هو مجتمع تنوخ في النسب ، ولم يخص أهل المعرة . ويوافقه ما ذكره ياقوت في معجم البلدان ، إلا أن أبا يعقوب سماه تيم اللات كما قدمنا . وكان شعار تنوخ في حروبهم : (وَاصِلٌ ، وَاصِلٌ) ، وإليه أشار أبو العلاء في لزومياته بقوله :

فِرٌّ من هذه البرية في الأَرْضِ ضِفا غير شرّها لك حاصلٌ

فَشِعَارِي قاطعٌ وكان شعاراً لَتَنُوخِ في سالف الدهر واصلٌ

والشعار : العلامة في الحرب ، وفي الحديث أن شعار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كان في الغزو : (يامَنْصُورُ أَمِتْ أَمِتْ) وهو تَفَاؤُلٌ بالنصر بعد الإمامة . واستشعرَ القومُ إذا تَدَاعَوْا بالشَّعَارِ في الحرب .

والمَعَرِّي نسبة إلى معرة النعمان ، وهي بلدة بالشام من أعمال حمص بين حلب وحماة ، وليست منسوبة للنعمان بن المنذر كما توهمه بعضهم ، بل نُسِبَتْ فيما ذكروا للنعمان بن بشير الأنصاري ، لأن ولدًا له مات وهو مجتاز بها ، فدفنه فيها وأقام أياماً حزيناً ، فنسبت إليه لذلك . قال ياقوت في معجم البلدان : وهذا في رأيي سبب ضعيف لا تسمى بمثله مدينة ، والذي أظنه أنها مسماة بالنعمان الملقب بالساطع . قلت : وهو النعمان بن عدى ، أحد أجداد المعري المذكورين في نسبه . والذي ذكره ياقوت مقبول ، فإن تسمية بلدة باسم أحد قطانها المشهورين فيها أقرب من تسميتها بأحد المجتازين بها . وذهب الشريشي في شرح المقامات إلى

أنها أضيفت لجبل مطل عليها اسمه النعمان ، ولم يذكر ياقوت هذا الجبل .

ومن شعر أبي العلاء فيمن عيَّره باسم بلده :

يعيرنا لفظ المعرَّة أنها من العرِّ قوم في العُلا غرَّبا

وهل لحق التثريب سُكَّان يثرب من الناس ، لا ، بل في الرجال غنَّبا

وذو نجب إن كان ما قيل صادقاً فما فيه إلا مفسَّر نجَّبا

أى إن كان اسم البلدة له تأثير على ساكنيه ، على ما زعم هؤلاء الزاعمون ،

فيلزم منه أن التثريب لاحق لسكان يثرب ، وهي مدينة الرسول عليه الصلاة

والسلام . ويلزم منه أيضاً أن يكون سكان ذى نجب كلهم نجَّبا ، مع أن

فيهم النجيب وغير النجيب كسائر سكان البلاد .

ومن شعره في اسمه :

وأحد سمانى كبيرى وقلما فعلتُ سوى ما أستحق به الذمَّ

وقال أيضاً :

رؤيدك لو كشفت ما أنا مضمير من الأمر ما ستمتني أبدأ باسمى

أطهر جسمى شاتياً ومقيظاً وقلبي أولى بالطهارة من جسمى

وقال في كُنيتِه :

عرفتُك جيداً يا أمَّ دفر وما إن زلتِ ظلمةً فزولى

دُعيتُ أبا العلاء وذلك مئِنُ ولكن الصحيح أبو النزول

يقول ذلك جرياً على عادته في الخمول والتواضع .

وقد خلط بعض العصريين بين أبي العلاء المعرى ، وأبي العلاء صاعد

اللغوى ، لاتفاقهما في السكنية واشتهار كليهما باللغة ، فنسب للمعرى كتاباً اسمه

الفصوص في قصة ساقها ، وإنما هو لصاعد ، وسيأتى تفصيل ذلك في فصل مؤلفاته .

فصل في بيته

كان أبو العلاء من بيت علم وقضاء ، ورياسة وثناء . تولى جماعة من أهله قضاء المعرة وغيرها ، ونبغ منهم قبله وبعده كثيرون راسوا وساسوا ، وكان فيهم العالم والكاتب والشاعر . ولأهل المعرة اعتقاد كبير فيهم ، ولواؤهم بهم ، وفزع إليهم في أمورهم . وذكروا أن كمال الدين بن العديم عقد فصلاً لتراجمهم وأخبارهم في كتابه : « دفع التحرى ، عن أبي العلاء المعرى » . إلا أنى لم أظفر بهذا الكتاب مع كثرة بحثى وتنقيبى عنه ، فاعتمدت في أكثر ما أذكره هنا على ما في « إرشاد الأريب » لياقوت ، و « الكوكب الثاقب » لعبد القادر بن عبد الرحمن السلوى ، وتركت كثيراً منهم لعدم تحققي من صحة أنسابهم وألقابهم ، بسبب تحريف النسخ :

فمنهم : « جده الأذنى سليمان بن محمد أو أحمد » الشهير بقاضى المعرة ، وولى أيضاً القضاء بمحصر ، وبها مات سنة ٢٩٠ هـ . وكان أبوه شاعراً .

« عمه أبو بكر محمد بن سليمان » ولى القضاء بعد أبيه ، وفيه يقول الصنوبرى :

بأبي يا ابن سليمان ن لقد سُدتَ تَفُوحًا
 وهم السادة شُبًا نأ لعمرى وشيوخا
 أدرك البُعْيَةَ من أض حى بناديك مُنِيحًا
 واردةً عندك نِيلاً وفُرَاتًا و بَلِيخًا^(١)
 واجدًا منك متى استَصَّ رَخَ للمجد صَرِيحًا
 فى زمان غادر الهَمَّات فى الناس مسوخا

(١) النيل بمصر ، والفرات بالعراق ، و بليخ بفتح فكسر نهر الرقة .

« أبوه عبد الله بن سليمان » ولى القضاء بعد أخيه محمد بن سليمان ، وتوفى
بمحصر سنة ٣٧٧ هـ . ومن شعره فى رثاء والده :

إن كان أصبح من أهواه مُطْرَحًا بيباب حمص فما حزنى بِمُطْرَحِ
لو بان أيسر ما أخفيه من جزع لمات أكثر أعدائى من الفرح
ورثى أبو العلاء والده بقصيدة نونية أولها :

نقمت الرضا حتى على ضاحك المزنِ فما جادنى إلاّ عبوس من الدجن
وسنورد مختارها عند الكلام على منظومه .

« أخوه أبو المجد محمد بن عبد الله بن سليمان » كان أسنّ من أبى العلاء ،
ومن شعره فى الزهد :

كرم المهيمن منتهى أملى لا نيتى أجزر ولا عملى
يا مُفضلاً جلت فواضله عن بغيتى حتى انتهى أجلي
كم قد أفضت على من نعم كم قد سترت على من زلل
إن لم يكن لى ما ألوذ به يوم الحساب فإن عفوك لى

« أخوه أبو الهيثم عبد الواحد بن عبد الله بن سليمان » كان شاعراً كأبيه
وأخويه أبى المجد وأبى العلاء ، ومن شعره :

قالوا نراه سلاً لأن جفونه ضنّت عشية بيننا بدموعها
ومن العجائب أن تفيض مدامع نار الغرام تشب فى ينبوعها
وله فى الشمعة :

وذات لون كلونى فى تغيّره وأدمع كدموعى فى تحدرها
سهرت ليلى وباتت لى مسهّرة كأن ناظرها فى قلب مسهرها

قلت : ومهما قيل في الشمعة ، فليس لقصيدة القاضي ناصح الدين الأرجاني
ضريب في هذا الباب ، فقد بدأ بها من تقدمه وأعيان بعده ، إذ يقول :

نَمَتْ بِأَسْرَارِ لَيْلٍ كَادَ يُخْفِيهَا	وأطلعت قلبها للناس من فيها
سَفِيهَةٌ لَمْ يَزَلْ طَوْلُ اللِّسَانِ لَهَا	في الخمي يجني عليها ضرب هاديها
غَرِيقَةٌ فِي دَمُوعٍ وَهِيَ تَحْرِقُهَا	أنفاسها بدوام من تلظيها
تَنَفَّسَتْ نَفْسَ المَهْجُورَةِ إِذْ كَرَّتْ	عهد الخليل فبات الوجد يُبكيها
يُخْشَى عَلَيْهَا الرَّدَى مِمَّا أَلَمَّ بِهَا	نسيم ریح إذا وافي يُحييها
كَأَنَّهَا غُرَّةٌ قَدْ سَالَ شَارِخُهَا	في وجه دهماء يزهاها تجليها
أَوْ ضَرَّةٌ خَلَقَتْ لِلشَّمْسِ حَاسِدَةٌ	فكلما حُجبت قامت تحاكيها
لَهَا غَرَائِبٌ تَبْدُو مِنْ مَحَاسِنِهَا	إذا تفكرت يوماً في معانيها
فَالوَجْنَةُ الوَرْدِ إِلَّا فِي تَنَاوُلِهَا	والقامة العصن إلا في تثنيها
صُفْرٌ غَلَاثِلُهَا حُمْرٌ عَمَامُهَا	سود ذوائبها بيض لياليها
تَحْيَى اللَّيَالِي نَوْرًا وَهِيَ تَقْتُلُهَا	بئس الجزاء لعمر الله تجزيها

ولولا خوف الإطالة لذكرتها بتمامها لغرابتها .

وأتى بعد أبي العلاء جماعة ذكر منهم ياقوت ثمانية أسماء ، وأضرب عن
ذكر غيرهم اختصاراً ، وغالبهم تولوا القضاء بالمرعة ، وكفرطاب ، وحماة . ومنهم
من تولى ديوان الإنشاء .

وإنما تركت ذكرهم لما قدمت من تحريف أسمائهم في النسخة .

فصل في مولده ووفاته وحليته

ولد يوم الجمعة عند مغيب الشمس لثلاث بقين من شهر ربيع الأول سنة ٣٦٣ . وعمى بالجدري أول سنة ٣٦٧ . غشى يمينه بياض ، وذهبت اليسرى جملة . وكان يقول : لا أعرف من الألوان إلا الأحمر ، لأنهم ألبسوني حين جدت ثوباً معصفاً ؛ لا أعقل غير ذلك . وقال في إحدى رسائله إلى داعي الدعاة : (وقد علم الله أن سمعي ثقيل ، وبصري عن الإبصار كليلاً ، قضيت على وأنا ابن أربع ، لا أفرق بين البازل^(١) والرابع^(٢)) فلا وجه إذاً لمن زعم أنه ولد أكمه .

وحكى السلفي عن أبي محمد الإيادي أنه دخل مع عمه علي أبي العلاء يزوره ، فرآه قاعداً على سجادة لبْدٍ وهو شيخ . قال : فدعاني ومسح على رأسي ، وكنت صبيهاً ، وكأني أنظر إليه الساعة وإلى عينيه إحداهما بارزة والأخرى غائرة جدا ، وهو مجرد الوجه ، نحيف الجسم .

ونقل الثعالبي عن المصيصي الشاعر ، قال : رأيت بمَعرة النعمان عجيباً من العجب ، رأيت أعمى شاعراً ظريفاً يلعب بالشطرنج والنرد ، ويدخل في كل فن من الجد والمزل ، يكنى أبا العلاء ، وسمعته يقول : أنا أحمد الله على العمى ، كما يحمده غيري على البصر . انتهى .

وقال الشيخ عبد الغني النابلسي في رحلته الكبرى المسماة بالحقيقة والحجاز ،

(١) البازل من الجمال الذي بلغ تسع سنين ، وليس بعده سن تسمى .
(٢) والرابع كصرد الفصيل ينتج في الربيع وهو أول النجاج ، فإذا نتج في آخر النجاج فهو هبع ، ومراد أبي العلاء : لا أفرق بين الكبير والصغير .

في رحلة الشام ومصر والحجاز ، عند كلامه على القدس وما فيها : « ودخلنا إلى المدرسة المسماة بالفخرية ، وهي في غاية من الحسن والإتقان ، وكال البهاء وجمال البنيان ، وفيها جملة من الكتب ، ورأينا فيها ديوان أبي العلاء المعريّ وشرحه ، ورأينا هناك مكتوباً له هذين البيتين ، وهما قوله :

قالوا العمى منظر قبيح قلت بفقدى لكم يهون
والله ما في الأنام شيء تأسى على فقداه العيون

ويناسبه قوله أيضاً :

أبا العلاء يا ابن سليمان إن العمى أولاك إحسانا
لو أبصرت عينك هذا الوري ما أبصرت عينك إنسانا »

انتهى كلام الشيخ . والبيتان الأولان اختلفوا في قائلهما ، فنسبهما الصفدى في شرح لامية العجم ج ٢ ص ٢٨٤ لأبي العلاء كما ذكر الشيخ ، ولكن روايته (ما في الوجود) بدل (ما في الأنام) .

ونسبهما الشريشى في شرح المقامات لبشار بن برد ، وروايته (ما في البلاد) ، ونسبهما الوطواط (في الفرر والعرر ص ١٦١) لأبي العيناء ، وروايته (والله ما في الأنام حر) والله أعلم .

والبيتان الآخرا لم أجدهما في شعر أبي العلاء ، ولعلهما من شعره المفقود . فإن قيل : كيف كان يحمد الله على العمى ، وهو القائل في عكسه يتمنى الإبصار :

فليت الليالى ساحتنى بناظر يراك ومن لى بالضحى فى الأصائل
فلو أن عيني متمعنًا بنظرة إليك الأمانى ما حلت بغائل

قلنا : ليس هذا من التناقض في شيء ، ولكل مقام مقال ؛ لأنه أبان في الأول عن مذهبه ورأيه في الوجود ، وجرى في الثانى على طريقة الشعراء في مدائحهم ؛

إذ كان المقام يقتضيه . ومن هذا تعلم فرق ما بين شعريه في سقط الزند واللزوميات ،
لاختلاف المقامين وتباين الوجهتين . وإن صححت نسبة البيتين السابقين لأبي العيناء
كما ذكر الوطواط ، فقد جرى على مثل هذا أيضاً في قوله للمتوكل وقد سأله عن
أصعب ما مر عليه في فقد بصره ، فقال له : فقدى لرؤيتك يا أمير المؤمنين .

ومن قول أبي العلاء في عماء ، وهو مما رواه له الصفدي :

سواد العين زار سواد قلبي ليتفقا على فهم الأمور

يشير بذلك إلى أن العميان عوّضوا عن البصر الذكاء وسرعة الحفظ ، وقريب

منه ما ينسب لسيدنا عبد الله بن عباس ، وكان أصيب في بصره في آخر عمره :

إن يأخذ الله من عيني نورهما ففي فؤادي وقلبي منهما نور

قلبي ذكي وعقلي غير ذي دخل وفي فمي صارم بالقول مشهور

وغاية الغايات في هذا الباب قول بشار بن برد فيمن عيّر بالعمى ، وإن كان

من غير هذا المعنى :

وعبرني الأعداء والعيب فيهم وليس بعار أن يقال ضرير

إذا أبصر المرء المرودة والتقى فإن عمى العينين ليس يضير

رأيت العمى أجراً وذخراً وعصمة وإني إلى تلك الثلاث فقير

ومن طرائف أبي العلاء أنه لما فرغ من تصنيف كتابه اللامع العريزي في

شرح ديوان المتنبي ، وقرئ عليه ، أخذ الجماعة في وصفه ، فقال : كأنما نظر

المتنبي إلى بلحظ الغيب حيث يقول :

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صم

وكان أبو حزم مكّي بن ريان المقرئ الضرير الملقب بصائن الدين يتمصّب

لأبي العلاء ، ويضطرب إذا قرئ عليه شعره للجامع بينهما من العمى والأدب ،

فسلك مسلكه في النظم . كذا ذكر ابن خلكان نقلا عن ابن المستوفى .
وتوفى رحمه الله يوم الجمعة ، ثالث ، وقيل ثاني ، وقيل ثالث عشر ربيع
الأول سنة ٤٤٩ بالمعرة ، في خلافة القائم العباسي ، وله من العمر نحو ست
وثمانين سنة ، ومرض ثلاثة أيام ، ولم يكن عنده غير بنى عمه ، فقال لهم في اليوم
الثالث : اكتبوا عني ، فتناولوا الثوب والأقلام ، فأملى عليهم غير الصواب ، فقال
لهم القاضي أبو محمد عبد الله التنوخي : أحسن الله عزاءكم في الشيخ فإنه ميت .
فمات من غده ، ودفن في ساحة من دور أهله . قال القفطي : أتيت قبره سنة
خمسین وستائة ، فإذا هو في ساحة من دور أهله وعليه باب ، فدخلت فإذا القبر
لا احتفال به ، ورأيت عليه خبازي يابسة ، والموضع على غاية ما يكون من الشعث
والإهمال . وقال الذهبي وقد رأيت قبره بعد مائة سنة من رؤية القفطي ، فرأيت
نحواً مما حكى . انتهى . ويقال إنه أوصى أن يكتب عليه :

هذا جناه أبي عليّ وما جنيت عليّ أخذ

ونقل الصفدي عن خط علاء الدين الوداعي قال : زرت قبره بالمعرة رحمه الله
تعالى في ربيع الأول سنة تسع وسبعين وستائة ، ولم أر عليه شيئاً من ذلك ، وقد
دثر واصلق بالأرض ، وعملت هذين البيتين :

قد زرت قبر أبي العلاء المرتضى لما أتيت معرة النعمان

وسألت من غفر الخطايا أنه يهدي إليّ رسالة الغفران

قلت : وقبره معروف إلى اليوم أي سنة ١٣٢٧ بالمعرة ، ولأهلها اعتقاد

كبير فيه ، ويزعمون أن الماء إذا بيت في قارورة عند قبره ، وشربه في الغد صبي

به حبسة في لسانه ، أو بلادة في ذهنه ، زال ذلك عنه ببركة أبي العلاء .

ونقل ياقوت في « إرشاد الأريب » عن ابن الهبارية ، أن السبب في وفاة

أبي العلاء مكاتبات جرت بينه وبين أبي نصر بن أبي عمران داعي الدعاة بمصر ،
دعت إلى الأمر بإحضاره إلى حلب ، ووَعَدَهُ على الإسلام خيراً من بيت المال ،
فلما علم أنه يحمل للقتل أو الإسلام سَمَّ نفسه فمات . قال ياقوت : وقد ظفرت بتلك
الرسائل ، فلم أجد بها ما يدل على ما ذهب إليه ابن الهبارية . انتهى . وأقول :
هذه الرسائل هي التي لخصها ياقوت في كتبه المذكور ، وقد ظفرت بها أنا أيضاً ،
وهي عندي تامة في نسخة مخطوطة ، وليس فيها شيء من ذلك . وبعد فأى
إسلام كان يريد من داعي الدعاة ، وهو رئيس الباطنية في الدولة الفاطمية ،
والداعي إلى مذهبهم ، ونحلة القوم معروفة لا تحتاج لبيان . ومن راجع دعواتهم
في خطط المقرئ علم كيف كانوا يأخذون الداخل في مذهبهم بتشكيكه في دينه
أولاً ، ثم الخروج به رويداً رويداً من الإسلام ، حتى ينتهوا به إلى الإلحاد . فهل
كان ما عليه هؤلاء القوم هو الإسلام في نظر ابن الهبارية حتى يتبجح
بهذه الدعوى ؟؟

وكان رحمه الله قصير القامة ، نحيف الجسم ضعيفه ، مشوه الوجه بآثار الجدري ،
ومُنِيَ في آخر عمره بالإقعاد ، ولما مات ختم عند قبره في أسبوع واحد مائة ختمة ،
وفي رواية مائتان ، واجتمع عليه خلق كثير ، وأنشد أربعة وثمانون شاعراً
سرائرهم فيه . منها قصيدة طويلة لتلميذه علي بن همام ، يقول فيها :

إن كنت لم ترق الدماء زهادة فلقد أرقت اليوم من جفني دما

سيرت ذكرك في البلاد كأنه مسك تضح منه سمعا أو فسا

وترى الحجيج إذا أداروا ليلة ذكراك أوجب فدية من أحراما

قال ياقوت : كأنه يقول إن ذكرك طيبٌ والطيب لا يحل للمُحرم ، فتجب
عليه فدية . ورتاه أبو الرضى عبد الرحمن بن نوت المعري بقصيدة نذكر منها
ما وقفنا عليه في « الكوكب الثاقب » لعبد القادر السَّلَوِيّ ، وهو :

سمر الرماح وبيض الهند تشمور
والدهر فاقد أهل العلم قاطبة
فهل تُرى بك دار العلم عالمة
والعلم بعدك علم فات منصله
ورثاه الأمير أبو الفتح الحسن بن عبد الله بن أبي حصينة المعري بقوله :
والعلم بعد أبي العلاء مضيع
أودى وقد ملأ البلاد غرائبها
ما كنت أعلم وهو يودع في الثرى
جبل ظننت وقد تزعزع ركنه
وعجبت أن تسع المعرة قبره
لو فاضت المهجات يوم وفاته
تتصرم الدنيا وتأتى بهمه
لا تجمع المال العتيد وجد به
وإن استطعت فسر بسيرة أحمد
رفض الحياة ومات قبل مماته
عين تسهد للعفاف وللتقى
شيم تجعله فهن بلحده
جادت ثراك أبا العلاء غمامة
ما ضيع الباكي عليك دموعه
قصدتك طلاب العلوم ولا أرى
مات الثمهي وتمطلت أسبابه
في أخذ ثارك والأقدار تعتذر
كأنهم بك في ذا القبر قد قبروا
أن قد تزعزع فيها الركن والحجر
والفهم بعدك قوس ما له وتر
عبد الله بن أبي حصينة المعري بقوله :
والأرض خالية الجوانب بلقع
تسرى كما تسرى النجوم الطلّع
أن الثرى فيه السكواكب تودع
أن الجبال الراسيات تزعزع
ويضيق بطن الأرض عنه الأوسع
ما استكثرت فيه فكيف الأدمع
أم وأنت بمثله لا تسمع
من قبل تركك كل شيء تجمع
تأمن خديعة من يغر ويخدع
متطوعا بأبر ما يتطوع
أبدأ وقلب للمهيمن يخضع
تاج ولكن بالثناء يرصع
كفدى يديك ومزنة لا تقلع
إن الدموع على سواك تضيع
للعلم بابا بعد بابك يقرع
وقضى التأدب والمكارم أجمع

فصل في نشأته وطلبه العلم ورحلته

نشأ بالمعرة ، وأخذ النحو واللغة عن أبيه ، وعن محمد بن عبد الله بن سعد النحوى بحلب ، وحدث عن أبيه وجده . ثم رحل إلى بغداد ، فسمع من عبد السلام بن الحسين البصرى . هكذا ذكر السيوطى فى بغية الوعاة ، قال : وقد أسندنا حديثه فى الطبقات الكبرى ، وله ذكر فى جمع الجوامع . وذكر غيره أن أبا العلاء لما قدم بغداد ، قصد أبا الحسن على بن عيسى الربيعى لياخذ عنه ، فلما أراد الدخول عليه ، قال الربيعى : ليدخل الإصطبل ؛ فخرج مضطرباً ولم يعد إليه . والإصطبل بلفظة أهل الشام الأعمى . قلت : وهى لفظة معربة ، ذكرها الخفاجى فى شفاء الغليل ، قال : ولذا قال ابن عباد : جرّوا الإصطبل فى قصته مع المعرى . ولعل الخفاجى أراد المرتضى ، وهم فذكر ابن عباد . وستأتى القصة . وذكر أبو الفداء أنه دخل بغداد واستفاد من علمائها ، ولم يُتَلَمَّذْ لأحد أصلاً ، وهو يخالف ما ذكره السيوطى وابن خلكان وغيرهما . وكان قد رحل أولاً إلى طَرَابُلُسَ ، وبها خزائن كتب موقوفة ؛ فأخذ منها ما أخذ من العلم . ثم رحل إلى بغداد سنة ٣٩٨ فأقام بها سنة وسبعة أشهر ، ثم رجع إلى المعرة وأقام بها إلى وفاته . وقول ابن خلكان إنه دخل بغداد سنة ٣٩٨ ، ودخلها ثانياً سنة ٣٩٩ . وأقام بها سنة وسبعة أشهر ، لا يستقيم مع ما سيرد عليك فى فصل مؤلفاته ، من تصريحه عن نفسه أن رجوعه إلى المعرة ولزومه منزله كان سنة ٤٠٠ . وقبل قدومه إلى المعرة بمدة يسيرة ماتت أمه ، وأصيب فى مال له ، فرثاها بقصيدة ميمية طويلة ، وأخرى بائية ، وكتب إلى بغداد يخاطب صديقه وتلميذه

القاضي أبا القاسم علي بن المحسن التنوخي بقصيدة ضمنها أغراضاً يقول فيها معتذراً
عن مفارقتة العراق :

أثارتني عنكمُ أمران والدة لم ألقها وثرأ عاد مسفوتا^(١)
أحياها الله عصرَ البينِ ثم قضى قبل الإياب إلى الذخرين أن موتا
لولا رجاء لقايتها لما تبعت عَنِّي دليلاً كَسِرَ الغمد إصليتا^(٢)
ولا صحبتُ ذنابَ الإنس^(٣) طاوية تراقب الجدى في الخضراء مسبوتا^(٤)

ولما استقر بالمعرة لزم داره ، وشرع في التصنيف والإفادة ، وأخذ عنه الناس ،
وقصده الطلبة من الآفاق ، وكان به العلماء والوزراء وأهل الأقدار ، وسمى نفسه :
« رهن الحبسين » يعني حبس نفسه في المنزل ، وحبس بصره بالعمى .

وما فتئ وهو بعيد عن بلده ، يحن إليه ويشتاقه ، ويذكره في شعره ،
وفيه يقول :

سرى برقُ المعرة بعد وَهن فبات برامة يصف الكلالا
شجا رَكْبًا وأفراسا وإبلا وزاد فكاد أن يشجو الرحالا
بها كانت جيادهم مهاري وهم مُرْدًا وبُرْهُمُ فِصَالا
وقال :

فيا برق ليس الكرخُ دارى وإنما رماني إليه الدهر منذ ليل
فهل فيك من ماء المعرة قطرة تغيث بها ظمآن ليس بسال
وقال أيضاً :

(١) المسفوت : القليل البركة .
(٢) الإصليت : الماضي الصقيل .
(٣) يريد بذناب الإنس اللصوص .
(٤) المسبوت : من السبات ، وهو النعاس .

متى سألت بغداد عنى وأهلها فأتى عن أهل العواصم سأل
وماء بلادى كان أنجع مشرباً ولو أن ماء الكرخ صهبا جريال
على أنه لما أزمع الرحلة من بغداد، عز عليه فراقها، وفراق أودائه فيها، فقال
من قصيدة يجيب بها أبا على النهاوندى :

وردنا ماء دجلة خير ماء وزرنا أشرف الشجر النخيل
وزلنا بالغيل وما اشتفينا وغاية كل شيء أن يزولا
ونظم في توديعها قصيدة يقول فيها :

أودعكم يا آل بغداد والحشا على زفات ما يتين من اللذع
وداع ضن^(١) لم يستقل وإنما تحامل من بعد العشار على ظلع
فبئس البديل الشام منكم وأهله على أنهم قومي وبينهم ربي
ألا زودوني شربة ولو أنني قدرت إذا أفنيت دجلة بالجرع
وأنى لنا من ماء دجلة نغبة على الخمس من بعد المفاوز والربع
وقال من أخرى :

لقد نصحتنى فى المقام بأرضكم رجال ولكن رب نصح مضيع
فلا كان سيرى عنكم رأى ملحد يقول بيأس من معاد ومرجع
أى لا كان سيرى عنكم ذهاباً بلا إياب . أخرجه مخرج الدعاء .

(١) يقال ضنى كرضى فهو ضنى وضن : مرض .

فصل في تلاميذه

قرأ على أبي العلاء ببغداد والمعرفة كثيرون ، واشتهر جماعة منهم بالاختصاص به ، والانتساب إليه في العلم ؛ كأبي المكارم عبد الوارث بن محمد الأبهري ، وأبي تمام غالب بن عيسى الأنصاري ، والخليل بن عبد الجبار القزويني ، ومحمد بن أحمد ابن أبي الصقر الأنباري وغيرهم . ومن روى عنه : القاضي أبو القاسم علي ابن القاضي المحسن ابن القاضي التنوخي ، وكان من أقرانه ، أخذ عنه وهو ببغداد ، وصحبه ، واتصلت صحبته بالبريزي بسبب أبي العلاء . ولد القاضي المذكور ، سنة ٣٦٥ بالبصرة ، كما في « وفيات الأعيان » لابن خلكان ، أوفى سنة ٣٥٥ كما في « فوات الوفيات » لابن شاكر ، والأول أصح . وتوفي سنة ٤٤٧ ، قبل وفاة أبي العلاء بنحو سنتين . وكان صدوقا في حديثه ، وقبالت شهادته عند الحكام في حدائمه ، ولم يزل على ذلك مقبولا إلى آخر عمره ، وتولى قضاء عدة نواح ، منها المدائن وأعمالها ، وأذربيجان والبردان وغير ذلك . وكانت فيه دعاية ، يروى أن إسكافا اجتاز بداره وهو نائم ، فصاح شرالك النعال وأزعجه بصياحه ، فقال لغلامه : اجمع كل نعل في الدار وأعطها لهذا يصلحها ويشغل بها ، ثم نام واشتغل الإسكاف بإصلاحها إلى آخر النهار ، فلما كان في اليوم الثاني فعل كذلك ، ولم يدعه ينام ، فقال للغلام : أدخله ، فلما دخل قال له : أمس أصلحت كل نعل عندنا ، واليوم تصيح علي بابنا ، هل بلغك أننا نتصافع بالنعال ونقطعها ؛ يا غلام ، قفاه .

وسمع امرأة تقول لأخرى : كم عمر ابنتك ؟ فقالت : رزقتها يوم صفع

القاضي وضرب بالسياط ، فقال لها : أصار صفعي تاريخاً لك ما وجدت تاريخاً غيره ؟

ومن قرأ على أبي العلاء ، وهو ببغداد : الأديب المشهور بابن فورجة البروجردى ، ذكر ذلك السيوطى . وهو صاحب « الفتح على أبي الفتح » ، و« التعجنى على ابن جنى » ، يرد فيهما على ابن جنى فى شرح شعر المتنبى . واختلفوا فى اسمه فقيل محمد بن حمد ، وسماه مجد الدين الشيرازى فى كتابه « البلغة فى أئمة اللغة » : حمد بن محمد ، ومن شعره :

أيها القاتلى بعينيه رفقاً إنما يستحق ذا من قلاكا
أكثر اللأمون فيك عتابى أنا واللأمون فيك فداكا
إن لى غيرة عليك من اسمى إنه دائماً يقبل فاكا

قال السيوطى : هذا الشعر يؤيد أن اسمه حمد . واختلفوا أيضاً فى اسم جده فورجة ؛ فقال السيوطى : بضم الفاء وسكون الواو وتشديد الراء المهملة وفتح الجيم . وقال ابن شاكر فى « فوات الوفيات » : فوزجة بالفاء المضمومة ، و بعد الواو والزأى جيم مشددة . وفى النسخ خلط فى ميلاده ووفاته .

وأشهر تلاميذ أبي العلاء : أبو زكريا يحيى بن على الخطيب التبريزى ، صاحب المصنفات النفيسة ، كشرح الحماسة والمعلقات وتهذيب ألفاظ ابن السكيت وغيرها ، ولد سنة ٤٢١ . وتوفى نجاة ببغداد سنة ٥٠٢ . ودخل مصر فى عنفوان شبابه ، ثم استوطن بغداد ، ودرّس الأدب بالنظامية ، وكان إماماً فى اللغة ثقة فيها ، إلا أنه كان مُستَهْتَرًا بالشراب . وكان سبب رحلته إلى أبي العلاء أنه تحصل على نسخة من كتاب « التهذيب » للأزهري فى اللغة فى عدة مجلدات ، وأراد تحقيق ما فيها ، وأخذها عن رجل عالم باللغة ، فدلوه على

أبي العلاء ، فجعل الكتب في مخللة ، وحملها على كتفه من تبريز إلى المعرة ، ولم يكن له ما يستأجر به مسكوباً ، فنفذ العرق من ظهره إليها ، فأثر فيها . وكانت ببعض الوقوف ببغداد ، إذا رآها من لا يعرف صورة الحال ظن أنها غريبة ، وليس بها سوى عرق التبريزي .

وقال العلامة عبد الهادي نجا الأبياري من شيوخ هذا العصر المتوفى سنة ١٣٠٥ ، في كتابه « القصر المبني على حواشي المغني » عند كلامه على أبي العلاء المعري : « ومما يدل على فضله ، أن الخطيب أبا زكريا يحيى التبريزي قرأ الأدب عليه ورحل إليه من تبريز ، وسيدى عبد القادر الجيلاني ، قرأ الأدب على التبريزي هذا ، فالشيخ شيخ شيخ الجيلاني . والله أعلم » .

قلت : والذي قاله الشيخ من قراءة الجيلاني الأدب على التبريزي صحيح ، ذكره ابن شاكر في ترجمة الجيلاني من « فوات الوفيات » .

فصل في مبلغ علمه وذكائه

اتفق محبوه ومبغضوه على أنه كان وافر البضاعة من العلم ، غزير المادة في الأدب ، إماماً فيه ، حاذقاً بالنحو والصرف ، نسيج وحده في الذكاء والفهم وقوة الحافظة . أما اللغة وحفظ شواهدا وتقييد أوابدها فقد كان فيها أعجوبة من العجائب ، وحسبك أنهم إذا عددوا من رزقوا السعادة في أشياء ، لم يأت بعدهم من نالها — عدوا أبا العلاء من تفرد بسعة الاطلاع على اللغة . وكلامه الذي أورده في رسالة الغفران في بيتي النمر بن توبل ، وتغييره القوافي ، وتنزيلها على سائر حروف المعجم خلا حرف الطاء — يدل على اطلاع كبير ، وتمسك من اللغة والأدب قل أن يتفق نظيره لشخص . وخلاصة ما ذكره أن خلفا الأحمر تذاكر يوماً مع أصحابه في قول النمر :

ألم بصُحْبَتِي وَهُمْ هُجُوعٌ خَيْالٌ طَارِقٌ مِنْ أُمَّ حِضْنِ
لَهَا مَا تَشْتَهِي عَسَلًا مُصَقًّى إِذَا شَاءَتْ وَحَوَارَى بِسَمْنِ

فقال لهم : لو كان موضع أم حِضْنِ ، أم حَفْصِ ؛ ما كان يقول في البيت الثاني ؟ فسكتوا ، فقال : حَوَارَى بِسَمْنِ ، يعني الفالودج . والحوارى الدقيق الأبيض وهو اللباب ، فغير أبو العلاء قوافي البيتين على حروف المعجم ، وربما أتى في الحرف بالقافيتين والثلاث ، ولا يتفق هذا إلا لمن رزق حظاً وافراً من الاطلاع ، والمسألة مبسوسة في الرسالة ، فارجع إليها إن شئت لتعلم صحة ما قلناه .

وذكر غير واحد من اللغويين أن أبا العلاء لما دخل بغداد ، اعترضوا عليه في حلقة ابن المحسن ، لقوله :

ويوشع ردّ يوحى بعض يومٍ وأنت متى سقرت رددت يوحا
ويوح ويوحى بضمهما من أسماء الشمس ، فقالوا له : صحفت إنما هو يوح بالباء
الموحدة . واحتجوا عليه بكتاب الألفاظ لابن السكيت ، فقال لهم : هذه
النسخ التي بأيديكم غيرها شيوخكم ، ولكن أخرجوا ما في دار العلم من النسخ
العتيقة ، فأخرجوها فوجدوها مقيدة كما قال .

واحتج به ياقوت في معجم البلدان في تصحيح لفظة الضراح ردّا على من
قال إنها بالصاد المهملة ، فقال : ألا ترى إلى أبي العلاء أحمد بن سليمان المعري ،
كيف جمع بين الضراح والضريح إرادة للتجنيس والطباق ، فقال :

لقد بلغ الضراح وساكنيه نثاك وزار من سكن الضريحا

والثنا مقصوراً وبتقديم النون على الثاء : الخبر . ومن غريب ما يروونه عنه
في ذلك أنه دخل على الشريف أبي القاسم المرتضى أخى الشريف الرضى ،
وهو ببغداد ، فعثر برجل فقال : من هذا الكلب ؟ فقال أبو العلاء : الكلب من
لا يعرف للكلب سبعين اسماً . وسمعه المرتضى فأدناه واختبره فوجده عالماً مُشبعاً
بالفطنة والذكاء ، فأقبل عليه إقبالا كثيراً . قلت : ومن هذا هرب جلال الدين
عبد الرحمن السيوطى فجمع أكثر من ستين اسماً للكلب ، ونظمها في أرجوزة
سمّاها « التبرى من معرة المعري » ، رأيت أن أوردّها هنا إتماماً للفائدة لعزّة
وجودها ، ثم أعقبها بشرح يميّط اللثام عن الأسماء الواردة فيها ، وأتبعه بما
استدرّكته على الناظم من أسماء الكلب ، وهى :

لله حمْدٌ دائمٌ الوليُّ ثمَّ صَلَاتُهُ عَلَى النَّبِيِّ
قَدْ نَقَلَ الثَّقَاتُ عَنْ أَبِي الْعَلَاءِ لِمَا أَتَى الْمُرْتَضَى وَدَخَلَا
قال له شخصٌ به قد عثرا من ذلك الكلب الذى ما أبصرا

- فَقَالَ فِي جَوَابِهِ قَوْلًا جَلِيًّا
الكلب من لم يدر من أسماه
وقد تَبَعْتُ دَوَاوِينَ اللُّغَةِ
فَجِئْتُ مِنْهَا عَدَدًا كَثِيرًا
وقد نَظَمْتُ ذَاكَ فِي هَذَا الرَّجَزِ
فَسَمَّهَ هُدَيْتَ بِالتَّـبْرِئِ
١ — مِنْ ذَلِكَ الْبَاقِعِ ثُمَّ الْوَازِعُ
٢ — وَالْحَيْطَلُ السَّحَامُ ثُمَّ الْأَسَدُ
٣ — وَالْأَعْنَقُ الدَّرْبَاسُ وَالْعَمَلَسُ
٤ — وَالنَّغَمُ الطَّلِقُ مَعَ الْعَوَاءِ
٥ — وَعُدَّ مِنْ أَسْمَائِهِ الْبَصِيرُ
٦ — وَالْعَرَبُ قَدْ سَمَّوْهُ قِدْمًا فِي النَّفِيرِ
٧ — وَهَكَذَا سَمَّوْهُ دَاعِي الْكَرَمِ
٨ — وَثُمَّنَّمْ وَكَلْبٌ وَهَيْلَعُ
٩ — ثُمَّ كَسَيْبٌ عِلْمُ الْمَذَكْرِ
١٠ — وَالْقَلَطِيُّ وَالسَّلَاقِيُّ نِسْبَةٌ
١١ — وَالْمُسْتَطِيرُ هَائِجُ الْكَلَابِ
١٢ — وَالدَّرِصُ وَالْجِرْوُ مِثْلُ الْفَأِ
١٣ — وَالسَّمْعُ فِيمَا قَالَهُ الصُّوْلِيُّ
١٤ — وَنَقَلُوا أَرْزَاهِدُونَ لِلْكَلَابِ
١٥ — مِثْلُ قَطَامٍ عَلَمًا مَبْنِيًّا
- مُعَرِّبًا لِذَلِكَ الْمُجْهَلِ
سَبْعِينَ مَوْمِيًا إِلَى عِلَانِهِ
لَعَلَّنِي أَجْمَعُ مِنْ ذَا مَبْلَغِهِ
وَأُرْتَجَى فِيمَا بَقِيَ تَيْسِيرًا
لَيْسَتْفِيدَهَا الَّذِي عَنْهَا عَجَزُ
يَا صَاحِبَ مِنْ مَعْرَةَ الْمَعْرَى
وَالْكَلْبُ وَالْأَبْقَعُ ثُمَّ الزَّارِعُ
وَالْعَرَبُجُ الْعَجُوزُ ثُمَّ الْأَعْقَدُ
وَالْقَطْرُبُ الْفُرْنِيُّ ثُمَّ الْفَلْحَسُ
بِالْمَدِّ وَالْقَصْرُ عَلَى السَّوَاءِ
وَفِيهِ لُغَزٌ قَالَهُ خَبِيرُ
دَاعِي الضَّمِيرِ ثُمَّ هَاءُ فِي الضَّمِيرِ
مَشِيدُ الذِّكْرِ مَتَمُّ النِّعَمِ
وَمُنْذَرٌ وَأَهْوَجٌ وَهَجْرَعُ
مِنْهُ عَنِ الْهَمْزَةِ وَاللَّامِ عَرِي
كَذَا النَّصِيئِيُّ بِذَلِكَ أَشْبَهُ
كَذَا رَوَاهُ صَاحِبُ الْعُتَابِ
لَوْلَدِ الْكَلْبِ أَسَامٍ تُلْفَى
وَهُوَ أَبُو خَالِدِ الْمَكْنِيِّ
وَكَلْبَةٌ قِيلَ لَهَا أَيْضًا كَسَابُ
وَكَسْبَةٌ كَذَلِكَ نَقَلْنَا رِيًّا

- ١٦ — وَخُذْ لَهَا الْعَوَاقِقَ وَالْمُعَاوِيَةَ
وَلَعَوَةَ وَكُنْ لِدَاكِ رَاوِيَةَ
١٧ — وَوَلَدِ الْكَلْبِ مِنَ الذَّبَّابَةِ سَمٌ
عُسْبُورَةٌ وَإِنْ تَزَلَّ هَا لَا تُنَلِّمْ
١٨ — وَأَلْحَقُوا بِذَلِكَ الْخَيْمَافَعِي
وَإِنْ تَمُدَّ فَهِيَ جَاءَ سَمْعًا
١٩ — وَوَلَدِ الْكَلْبَةِ مِنْ ذُرْبِ سُمِّي
وَتُعَلَّبِ فِيهَا رَوَّوَا بِالذَّيْسَمِ
٢٠ — ثُمَّ كَلَابُ الْمَاءِ بِالْهَرَا كِلَهُ
تَدْعَى وَقَسْ فَرْدًا عَلَى مَا شَا كَلَهُ
٢١ — كَذَاكَ كَلْبُ الْمَاءِ يُدْعَى الْفَنْدُسَا
فِيَا رَوَّى ابْنُ دِحْيَةَ قَدْ انْتَسَى
٢٢ — وَكَلْبَةُ الْمَاءِ هِيَ الْقَضَاعَةُ
جَمِيعُ ذَلِكَ أَتَبَتُوا سَمَاعَةَ
٢٣ — وَعَدَدُوا مِنْ جِنْسِهِ ابْنَ آوَى
وَمِنْ سُمَاهُ دَالٌ قَدْ سَاوَى
وَدُئِلٌ وَدُوْلٌ وَالدَّالَّانُ
وَأَفْتَحَ وَضَمٌّ مُعْجَمًا لِلدَّالَّانِ
كَذَلِكَ الْعَلُوضُ ثُمَّ النَّوْفُلُ
وَالْوَعُ وَالْعَلُوشُ ثُمَّ الْوَعُوعُ
وَاللَّغُوضُ الشَّرْحُوبُ فِيهَا نَقَلُوا
هَذَا الَّذِي مِنْ كِتَابِ جَمْعَتِهِ
وَمَا بَدَأَ مِنْ بَعْدِ ذَا الْحَقَّةِ
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ لَهَا خِتَامُ
وَالشَّغْبَرُ الْوَأَوَاهُ فِيهَا يُسْمَعُ

تمت الأرجوزة . ولشرع في شرحها معتمدين على ما دونوه في كتب
اللغة والأمثال والحیوان ، وقد وضعنا أرقاماً للأبيات يرجع إليها في هذا
الشرح ، فنقول :

(١) الباقع والأبقع من الكلاب الذي خالط بياضه لون آخر ، والبقع في
الطير والكلاب بمنزلة البلق في الدواب ، وقول الأخطل :
كلوا الضبَّ وابن العيرِ والباقع الذي يبيتُ يعسُّ الليلَ بين المقابرِ
قيل أراد الكلب ، وقيل غير ذلك ، والعرب تقول : لا خير في بقع
الكلاب . وترى التبقيع هُجِنَةً فيها ، وخير الكلاب عندها ما كان لونه يذهب

إلى لون الأسد، وخير كلاب الصيد البيض . وفي الخصاص : البَقْعُ بياض في صدر
الكلب الأسود ، وهي البُقْعَةُ ، وكلبُ أَبَقَعُ والجمع بُقَعَانٌ . والوازع الكلب
لأنه يَزَعُ الذَّبَّابَ عن الغنم أى يكفُّه ، ويقال له ابن وازع أيضاً . والكلاب كل
سَبْعٍ عقور ، ثم غلب على هذا الناح ، كما في القاموس . وقال شارحه : قال
شيخنا : بل صار حقيقة لغوية فيه لا تحتمل غيره ، ولذلك قال الجوهري وغيره :
هو معروف ، ولم يحتاجوا لتعريفه لشهرته . انتهى . وهو من الأسماء التي تَسَمَّتْ
بها العرب ؛ فمن مشهور بهم في ذلك : كَلَيْبُ بن ربيعة من بني تَغْلِبِ بن وائل ،
وهو الذي ضربوا به المثل ، فقالوا : أَعَزُّ من كليب وائل ، وقامت الحرب بسببه
بين بكرٍ وتغلب . وكان اسمه في الأصل وائلا ؛ وإنما سموه كليباً ، لأنه بلغ من غزه
أنه كان يحمي الكلاب فلا يقرب حماه ، ويحير الصيد فلا يهاج . وكان إذا مر
بروضة أعجبته ، أو غدير ارتضاه ، كنع كليباً ثم رمى به هناك ، فحيث بلغ عواؤه
كان يَحْمِي لَأَيْرَعِي ، فلما حمى كليبته المرمى السكلاً قيل : أعز من كليب وائل .
ثم غلب هذا الاسم عليه حتى ظنوه اسمه ؛ كذا في مجمع الأمثال للميداني . وقوله :
كنع هو بمعنى بضع وكوع أى ضربه فصيره مُعَوَّج الأكواع . ومنهم كليب بن
حبشية بن سُلُول في خَزَاعَةَ . وكنب بن عمرو بن لُؤَي في بَجِيلَةَ . وبنو كلب ،
وبنو أكلب ، وبنو كلبنة وبنو كلاب ، قبائل معروفة ، منها في قريش كلاب بن
سرة ، وفي هَوَازِن كلاب بن ربيعة بن صَعَصَعَةَ . أما ذو الكلب فهو عَمْرُو بن
العَجَّلَان أحد شعراء هذيل ، لقب به لأنه كان له كلب لا يفارقه . وعائد الكلب
هو عبد الله بن مُصَعَّب ، كان والياً للرشيد على المدينة ، لقب بذلك لقوله :

مالي مَرَضَتْ فلم يَعُدْني عائدٌ منكم ويمرض كلبكم فأعود

وهو أحد من نطقوا في الشعر بكلمات غلبت شهرتها عليهم ، فلُقِّبوا بها ،

وربما جمعتُ ما وقفت عليه من ذلك في رسالة مستقلة . والسبب الذي دعا العرب إلى تسمية أبنائها بمثل هذه الأسماء المستكرهة كالكلب والذئب والحجر والصخر ، هو ما ذكره الراغب وغيره أن أعرابيا سئل : لِمَ سَمَّوْا أبنَاءهم بالأسماء القبيحة ، وعبيدهم بالحسنة ؟ فقال : لأن أبنَاءهم لأعدائهم ، وعبيدهم لأنفسهم . قلت : وقد فصل الإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر المشهور بابن قيم الجوزية مذاهب العرب في تسمية أبنائها تفصيلا ترتاح إليه النفس ويشلج به الفؤاد ، فقال في آخر كتابه « مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة » عند الكلام على الفأل والطيرة ، ما نصه : وكانت لهم مذاهب في تسمية أولادهم : فمنهم من سموه بأسماء تفاؤلا بالظفر على أعدائهم ، نحو غالب وغلاب ومالك وظالم وعارم ومنازل ومقاتل ومعارك ومسهر ومؤرق ومصبح وطارق ، ومنهم من تفأل بالسلام كتسميتهم بإسالم وثابت ونحوه ، ومنهم من تفأل ببئيل الحظوظ والسعادة كسعد وسعيد وأسعد ومسعود وسعدى وغائم ونحو ذلك ، ومنهم من قصد التسمية بأسماء السباع ترهيباً لأعدائهم نحو أسد وليث وذئب وضرغام وشبل ونحوها ، ومنهم من قصد التسمية بما غلظ وخشن من الأجسام تفاؤلا بالقوة كحجر وصخر وفهر وجندل ، ومنهم من كان يخرج من منزله وامراته تمخض ، فيسمى ما تلده باسم أول ما يلقاه ، كائناً ما كان ، من سبع أو ثعلب أو ضب أو كلب أو ظبي أو حشيش أو غيره . انتهى المقصود منه .

وأما ما سُمي بالكلب أو أضيف إليه من البقاع والسيوف والأنهار وغيرها ، فقد تركنا ذكره طلباً للاختصار ، ونقتصر منها على قرية بلحب تسمى جُبَّ الكلب ، تعد من العجائب لاشتهارها ببئر فيها إذا شرب منها للكلوب قبل أن يأتي عليه أر بعون يوماً برأ . كذا ذكر صاحب القاموس في مادة ج ب ب .

وقال ياقوت في معجمه : حدثني مالك هذه القرية ابن الإسكافي ، وسألته عما يحكى عن هذا الجب وأن الذى نهشه الكلب الكلب إذا شرب منه برأ ، فقال : هذا صحيح لا شك فيه . قال : وقد جاءنا منذ شهر ثلاث أنفس مكلو بين يسألون عن القرية ، فدأوا عليها ، فلما حصلوا فى صحرائها اضطرب أحدهم وجعل يقول لمن معه : اربطونى لئلا يصل إلى أحدكم منى أذى ، وذلك أنه كان قد تجاوز أربعين يوماً منذ نهش ، فرُبط ، فلما وصل إلى الجب وشرب من مائه مات . وأما الآخرون فلم يكونوا بلغوا أربعين يوماً ، فشراب من ماء الجب فبرأ . قال : وهذه عادته ، إذا تجاوز المنهوش أربعين يوماً لم تكن فيه حيلة . إلى أن قال : وهذه البئر هى بئر القرية التى يشرب منها أهلها . انتهى . قلت : ولا أدرى ما فعل الله بالقرية والبئر ، وإنما خصصتها بالذكر دون غيرها تنبيهاً لأطباء هذا العصر ، لعلهم يتوقفون للبحث والتنقيب عنها ، حتى إذا وجدوها امتحنوا ماءها ، فربما كان فيه من الأملاح أو غيرها ما من خاصيته شفاء هذا المرض ، وعسى ألا تأخذهم حمية جاهلية فيضربوا بهذا القول عرض الحائط بغير حجة سوى ما اعتادوه من احتقار أقوال علمائنا المتقدمين ، فلولا تجربة هذا الماء وظهور نفعه فى المصابين قبل أن يجاوزوا أربعين يوماً ، أى قبل استفحال الداء وتمكنه منهم ، لما استفاض خبره ، ونقله هؤلاء الأعلام ، ولا فائدة لثلهم فى التواطؤ على الكذب فى مثله .

والزراع بتقديم الزاى على الراء الكلب ، وفى القاموس : زارع اسم كلب ، ومنه قيل للكلاب : أولاد زارع ، وفيه أيضاً فى مادة ذرع بالذال المعجمة : أولاد ذارع ، وذراع بالكسر : الكلاب . وفى الخصاص : قال على بن حمزة : ابن زارع وابن ذارع وابن وازع : الكلب ، وربما سُمى وازعا أيضاً . انتهى .

الْخَيْطَلُ بفتح الخاء المعجمة وسكون الياء المثناة التحتيّة ، وفتح الطاء المهملة
و بعدها لام : الكلب . والشَّحَام بضم السين المهملة ، وبعدها حاء مهملة ، مأخوذ من
الشُّحْمَة وهي السَّوَاد ، والذي يؤخذ من نصوص كتب اللغة أنه عَلِمَ عَلَى كَلْبٍ
مُعِينٍ لا اسم جنس للكلاب . قال الجوهرى : سُحَام اسم كلب ، واستشهد بقول لبيد :
فَتَقَصَّدَتْ مِنْهَا كَسَابٍ فَضُرِّجَتْ بِدَمٍ وَغُودِرَ فِي الْمَكْرِ سَحَامُهَا
ووافقه في ذلك شُرَاحُ المعلقات ، وهو ظاهر من سياق البيت . وفي لسان
العرب : سُحِيمٌ وَسُحَامٌ من أسماء الكلاب ، ثم أنشد بيت لبيد . وذهب صاحب
القاموس إلى أن صوابه بالمعجمة قال : وَوَهْمِ الْجَوْهَرِيِّ . قلت : لا وَهْمٌ ؛ فقد ذكر
بعض شراح المعلقات أنه يروى بهما ، ووافقه الميداني في مجمع الأمثال عند تفسير
قولهم (هَنِيئًا لِسُحَامٍ مَا أَكَل) فإنه أورد البيت ثم قال : ويروى سُحَامُهَا بالخاء .
وهذا المثل يضرب في الشجاعة بهلاك العدو . وقول الزَّوْزَنِيِّ في شرح المعلقات
إنه اسم كلبية ، يخالف ما أجمعوا عليه من أنه اسم كلب ذكوري . والله أعلم . والأسد
لم أعر في كتب اللغة على أنه يطلق على الكلب ، وإنما الذي فيها أن
الكلب من أسماء الأسد . والعَرُجُجُ بضم العين المهملة ، وسكون الراء وضم الباء
الموحدة ، وبعدها جيم : الكلب الضخم ، كما في القاموس ، أو كلب الصيد ، كما في
اللسان . والعَجَّوز بفتح العين المهملة وضم الجيم وبعدها واو ساكنة وزاى : من
أسماء الكلب . والأَعْقَدُ بالعين المهملة ، والقاف ، والدال المهملة : الكلب ، لانعقاد
ذَنَبِهِ ، جعلوه اسماله معروفا ، قال جرير :

تَبُولُ عَلَى الْقَتَادِ بَنَاتُ تَيْمٍ مَعَ الْعُقْدِ النَّوَّاحِ فِي الدِّيَارِ
قالوا : ليس شيء أحب إلى الكلب من أن يبول على قتادة أو على شجيرة
صغيرة غيرها . وروى الجاحظ في كتاب « الحيوان » لساور بن هند يهجو قوماً
بأكل الكلاب :

إِذَا أَسَدِيَّةٌ وُلِدَتْ غُلَامًا فَبَشَّرَهَا بِلُؤْمٍ فِي الْغُلَامِ
يُحْرَسُهَا نِسَاءُ بَنِي دُبَيْرٍ بِأَخْبَثِ مَا يَكُونُ مِنَ الطَّعَامِ
تَرَى أَظْفَارَ أَعْقَدِ مُلَقِّيَاتِ بَرَائِنِهَا عَلَى وَصَمِ الثَّمَامِ
يُحْرَسُهَا أَى يَصْنَعْنَ لَهَا الْخُرْسَةَ وَهِيَ طَعَامُ النَّفْسَاءِ ، وَدُبَيْرٌ بِالتَّصْغِيرِ أَبُو قَبِيلَةَ
مِنْ أَسَدٍ ، وَالْوَصَمُ بِالتَّحْرِيكِ مَا وَقِيَتْ بِهِ اللَّحْمُ عَنِ الْأَرْضِ مِنْ خَشَبٍ أَوْ حَصِيرٍ ،
وَالثَّمَامُ نَبْتٌ ضَعِيفٌ لَا يَطُولُ كَانُوا يَفْرَشُونَهُ تَحْتَ الْأَسَاقِي وَنَحْوِهَا ، وَرَبَّمَا حَشَوَا
بِهِ وَسَدُّوا خِصَاصَ الْبُيُوتِ .

(٣) الْأَعْنَقُ بِالْعَيْنِ الْمَهْمَلَةِ وَالنُّونِ وَالْقَافِ : الْكَلْبُ فِي عُنُقِهِ بِيَاضٍ ، وَيُقَالُ
لِلْقَلَادَةِ الَّتِي تَوْضَعُ فِي عُنُقِ الْكَلْبِ : مِعْنَقَةٌ ، وَقَدْ أَعْنَقَهُ إِذَا قَلَدَهُ بِهَا ، وَيُقَالُ
لَهَا أَيْضًا الْجِدَّةُ بِالسَّكْرِ ، وَكَذَلِكَ الْأَرْبَةُ بِالضَّمِّ : قَلَادَةُ الْكَلْبِ الَّتِي يَقَادُ بِهَا .
وَالدَّرْبَاسُ بِكَسْرِ الدَّالِ الْمَهْمَلَةِ وَسُكُونِ الرَّاءِ وَبَعْدَهَا بَاءٌ مُوَحَّدَةٌ وَأَلْفٌ وَسِينٌ
مَهْمَلَةٌ : الْكَلْبُ الْعَقُورُ . وَالْعَمَّاسُ يَفْتَحُ الْعَيْنَ الْمَهْمَلَةَ وَالْمِيمَ وَاللَّامَ الْمَشْدُودَةَ ، وَبَعْدَهَا
سِينٌ مَهْمَلَةٌ : كَلْبُ الصَّيْدِ كَمَا فِي الْقَامُوسِ ، أَوْ الْكَلْبُ الْخَبِيثُ كَمَا فِي اللِّسَانِ .
عَلَى أَنَّهُ أَنْشَدَ بَعْدَ ذَلِكَ قَوْلَ الطَّرِّمَاحِ يَصِفُ كَلَابَ الصَّيْدِ :

يُورِّعُ بِالْأَمْرَاسِ كُلَّ عَمَّاسٍ مِنَ الْمُطْعِمَاتِ الصَّيْدِ غَيْرِ الشَّوَاهِنِ
وَقَالَ فِي تَفْسِيرِ يُوْرِعُ : يَكْفُ ، وَرَوَاهُ فِي مَادَّةِ وَدَعُ : يُوْدَعُ ، ثُمَّ قَالَ : أَى
يَقْلُدُهَا وَدَعَ الْأَمْرَاسِ .

وَالْقَطْرُبُ بِضَمِّ الْقَافِ وَسُكُونِ الطَّاءِ الْمَهْمَلَةِ وَضَمِّ الرَّاءِ ، وَبَعْدَهَا بَاءٌ مُوَحَّدَةٌ :
الصَّغِيرُ مِنَ الْكَلَابِ . وَفِي الْمُخَصَّصِ : الْقَطْرَبُ (أَى يَفْتَحُ الْقَافَ وَالرَّاءَ) صَغَارُ
الْكَلابِ ، زَعَمُوا أَنَّ الْوَاحِدَ قَطْرُبٌ ، وَلَيْسَ هُوَ جَمْعٌ بَلْ اسْمٌ لِلْجَمْعِ .
انْتَهَى مُلَخَّصًا .

والفُرُئِيّ بضم الفاء وسكون الراء وبعدها نون وياء مشددة : الكلب
الضخم ، قال العجاج :

وطَاحَ في المَرَكَةِ الفُرُئِيّ

قال ابن برّيّ : أراد الضخم من الكلاب ، وقال غيره : إنما أراد الرجل

الغليظ الضخم .

والفَلْحَسُ بفتح الفاء وسكون اللام وفتح الحاء المهملة وبعدها سين مهملة :
الكلب . قال الجاحظ في كتاب الحيوان : ويقال للكلب فَلَحَسٌ ، وهو من
صفات الحرص والإلحاح ، ويقال : فلان أسأل من فَلَحَس . وفَلَحَس رجل من
بني شيبان كان حريصاً رغبياً ومُحَفِّئاً مُلِحِّجاً ، وكل طُفْمَيْلِيّ فهو عندهم فَلَحَس .
انتهى . قلت : وإنما سموا الكلب بذلك لأنه موصوف عندهم بالحرص والإلحاح ،
حتى قالوا في أمثالهم : (أَلَحُّ من كَلْب) .

(٤) التَّمِيم : بفتح التاء المثناة وكسر العين المعجمة وبعدها ميم : الكلب
الضاري . والَطَلْقُ بفتح الطاء المهملة وسكون اللام وبعدها قاف : كلب الصيد .
والعَوَاءُ بالعين المهملة وبالمد ، ويقال أيضا بالقصر : الكلب يعوى كثيرا .
وللوزير أبي الوليد إسماعيل بن حجاج الأعمى الأشبيلي في فتى عضه كلب في خذّه :
وأغيدَ وضاحَ المباسمَ باسمِ إذا قامر الأرواح ناظره قرّ
تعمدَ كلبُ عَضَّ وَجَنَّتِه التي هي الورد إيناعا وأبقى بها أثرُ
فقلت لشهب الأفق كيف ضامكم وقد أثر العواء في صفحة القمر

هكذا رواها صاحب « نوح الطيب » في موضع من كتابه ، منسوبة للوزير
المذكور ، وأعادها في موضع آخر منسوبة لأبي القاسم بن هشام ، وروى المحاسن
بدل المباسم ، والأسياف بدل الأرواح . والله أعلم .

والصَّمات بالضم والصَّمت والصَّموت : السكوت ، يشير بذلك إلى قولهم :
لا يضر القمر نبح الكلاب ، وأصل المثل « لا يضر السحاب نبح الكلاب »
لأن كلاب البادية تتأذى بالمطر لمبيتها أبدأ تحت السماء ، فإذا أبصرت غيما
فبجته ، لأنها قد عرفت ما تلقى من مثله . وتنبح أيضاً القمر ، لأنه إذا طلع من
المشرق يكون كقطعة غيم ، ومنه قول بعضهم :

يا جابرَ بنَ عدِيٍّ أنتَ معَ زُفَرٍ كالكلبِ ينبحُ من بُعدٍ على القمرِ
(٥) البصير بفتح الباء الموحدة ، وكسر الصاد المهملة ، وبعدها ياء ساكنة

وراء مهملة ، لم يذكره القاموس ، وأشد صاحب اللسان لتوبة :

وأشرفُ بالقورِ اليفَاعِ لعلني أرى نَارَ لَيْلَى أَوْ يَرَانِي بِصِيرِهَا
ثم قال نقلا عن ابن سيده : يعنى كلبها ، لأن الكلب من أحد العيون
بصرا . انتهى .

قلت : وقد جاء في أمثالهم « أبصر من كلب » . وقول الناظم : « وفيه لغز
قاله خبير » يريد بذلك قول الحريري في المقامة الثانية والثلاثين في فتاوى فقيه
العرب « قال : أَيْسْتَبَاحُ ماء الضرير؟ قال : نعم ، وَيُجْتَنَّبُ ماء البصير »
فالمتبادر أن الضرير هو الأعمى وهو لا يستباح ماؤه الذي يملكه بدون علمه ،
ومراد الشيخ به : حرف الوادي ، وكذلك المتبادر في البصير أنه ضد الأعمى ،
وماؤه إذا أخذ للوضوء باطلاعه لا يجتنب ، وإنما أراد به الكلب . هكذا
غسره الحريري نفسه في المقامة .

(٦) هكذا رواية البيت في نسختين من الأصل ، ولم يظهر لي وجه تسمية
العرب للكلب في نفيهم بداعي الضمير أو داعي الضميرة كما يفهم من سياقه ،
ففاعل الكلام محرف ، وقد دخل البيت التذييل ، وهو من علل الزيادة ،
ودخوله في الرجز معتفر المولدين .

(٧) قوله : داعى الكرم ، إنما سموه بذلك على ما يظهر ، لأن نباح الكلب يبشرهم بقدم الضيف ، ويرشده إلى منزلهم ، فيكون سبباً للكرم وداعياً إليه . وقد كان الرجل من العرب إذا ضل وتخير في الليل ، فلم يدر أين البيوت ، أخرج صوته على مثل النباح ، فتسمعه الكلاب وتظنه كلباً ، فتنبیح ، فيستدل بنباحها ويهتدى إلى المسكان . وهو الذى تسميه العرب بالمستنبیح . وأنشد أبو على القالى فى أماليه :

ومُبدِ لى الشَّحناءَ بينى وبينه دعوتُ وقد طال السرى فدعانى
يعنى كلباً ، ويريد نبحت له فنبیح فاهتديت به ؛ فكأنه دعانى بنباحه .
وأنشد أبو على أيضاً :

ومُستنبِحِ باتِ الصَّدَى يَسْتَتِبهُ فَتَاهَ وَجَوُزُ اللَّيْلِ مضطربِ الكِسْرِ
رَفَعَتْ لَهُ نَاراً تَقُوباً زنادها تُليحُ إلى السَّارى هَلَمَّ إلى قِدرى
فلما أتى والبؤس رادف رَحله تلقيته منى بوجه امرئٍ بشرٍ
فقلت له أهلٌ بأهلٍ فلم يجزُ بك الليلُ إلا للجَميلِ من الأمرِ
وكادت تطير الشَّولُ عِرْفانَ صَوْتِهِ ولم تُمسِ إلا وهى خائفة العقرِ
انتهى . وقد اتفق أكثر علماء الأدب ، كابن رشيق وأضرابه ، على أن أهجى

بيت قالته العرب ، قول الأخطل فى بنى يربوع قوم جرير :

قوم إذا استنبِح الأضيافُ كلَّهمُ قالوا لأُمَّهمُ بولى على النار
وقال آخر يوصى بالكلب ، وأنشدهما الجرجاني فى كنياته ، وقال ابن

المرزبان : إنهما لأعرابي قالمها لأ كبير ولده فى كلبه :

أوصيك خيراً به فإنَّ له خلانفاً لا أزال أحمدها
يدل ضيفى على فى غسق الليل إذا النار نام مؤقدها

وفي معنى استنبح أيضاً: كَلَبَ الرجلُ يَكْلِبُ من باب ضرب ، واستكلب ،
أنشد ابن سيده على الأول :

وداعٍ دعا بعد ما أقفرت عليه البلاد ولم يكَلِبِ
وأنشد صاحب اللسان على الثاني :

ونبح الكلاب لُسْتَكْلِبِ انتهى .

قلت : وكما يكون الكلب سببا لإيصال الخير وتشديد الذكر ، فقد يكون أيضاً
سببا للشر ، كما جنت على أهلها برَاقِشُ ، وهي كلبة كانت تقوم من العرب ،
فأغبر عليهم ، فهربوا وهي معهم ، فاستدل العدو عليهم بنباحها ، فهجموا عليهم
واصطلموهم ، فقالوا (على أهلها تجني برَاقِشُ) هكذا رواه الميداني في مجمع الأمثال ،
ورواه ابن سيده في المحصص ، والجاحظ في كتاب الحيوان : (على أهلها دلت براقش) .
على أن نباح الكلب على الضيف وإن جعلوه من دواعي الكرم ، لما سبق
ذكره ؛ فقد رأيناهم يعدونه في نفسه من خصاله المذمومة ، لأنه لا ينبح على القادم
إلا كراهة منه في الغريب . ومن أحسن ما يروى في هذا الصدد نادرة أبي عبد الله
محمد بن سرزوق عالم المغرب مع أهل تونس لما ورد عليهم وسألوه قراءة درس في
التفسير بحضرة السلطان ، فأجابهم إلى ذلك ، وعينوا له محل البدء ، فطالع فيه ،
فلما حضروا قرأ القارى غير ذلك ، وهو قوله تعالى : « فثله كمثل الكلب .. الآية »
وأرادوا بذلك إغمام الشيخ والتعريض به ، فوجم هنيهة ثم تفجر بينابيع العلم ، إلى
أن أجرى ذكر ما في الكلب من الخصال المحمودة ، وساقها أحسن مساق ، وأنشد
عليها الشواهد ، وجلب الحكايات ، حتى عدَّ من ذلك جملة ؛ ثم قال في آخرها :
فهذا ما حضر من محمود أفعال الكلب وخصاله ، غير أن فيه خصلة ذميمة ، وهي
إنكاره للضيف . انتهى .

وعندى أن ذمهم له بإنكاره الضيف لم يقصدوا به إلا معنى من المعانى الشعرية ،
وإلا فأى فائدة من الكلب أعظم من حراسته أهله ، ودفعه عنهم ؟ !

(٨) التَّمَمُّمُ بفتح التاءين المثلثتين وسكون الميم الأولى : كلب الصيد .
والكالب ليس اسماً للكلب ، بل هو والكليب كأمير : جماعة الكلاب ، وفي
اللسان : الكليب كالعبيد ، جمع عزيز . وأنشد في وصف مفازة :

كَأَنَّ تَجَاوُبَ أَضْدَائِهَا مُكَاةَ الْمَكَلِّبِ يَدْعُو الْكَلِيبَا

والمكَلِّبُ بكسر اللام المشددة : معلم كلاب الصيد ، ومُكَاؤُهُ : صفيهه . وقال
شارح القاموس نقلاً عن شيخه : إنهم اختلفوا في الكليب هل هو جمع أو اسم
جمع ، وصححوا أنه إذا ذكر كان اسم جمع كالحجيج ، وإذا أنث كان جمعاً
كالعبيد . انتهى .

وهيْبَعُ كدرهم ؛ أى بكسر الهاء وسكون الباء الموحدة وفتح اللام وبعدها
عين مهيمة : الكلب السَلُوقِي ، واسم كلب بعينه . ومُنْدِرٌ كأنه من إنذار أهله
بالتارق . وأهُوجٌ لم يذكره ، وذكره الجاحظ على أنه الكلب في بيت أنشده
في كتاب الحيوان . والهَجْرَاعُ بكسر الهاء وسكون الجيم وفتح الراء وبعدها عين
مهيمة : الكلب السَلُوقِي الخفيف .

(٩) كَسَيْبٌ مصغراً : اسم كلب ، كما في المخصص ، وفي اللسان : كَسَيْبٌ من
أسماء الكلاب ، ومراده من الأعلام التي تسمى بها الكلاب ؛ كما وضحه الناظم في
البيت . وقد خصوه بذكور الكلاب كما خصوا كَسَابَ وكَسَبَةَ بإنائهما . وسيأتي
قول الناظم فيهما ، وإنما كانوا يسمون كلابهم بذلك تفاؤلاً بالكسب والاكْتَسَابِ .
(١٠) الْقَلَطِيٌّ بفتح القاف واللام وكسر الطاء المهملة وبعدها ياء مشددة ،
وَالْقَلَاطُ كغراب ، وَالْقِيلِيْطُ بكسر القاف واللام ؛ كل ذلك التصير المجتمع من

الناس والسنانير والكلاب ، وقد جاء به أبو الشمقمق في قوله من أبيات :

جئته زائراً فأذني مكاني وتلقى بمرحّبٍ وتحيّةٍ
لا كمثّل الأهمّ حارثة اللؤم شبه الكليّة القلطية

وفي حياة الحيوان أن القلطية نوع من الكلاب السلوقية صغير الجرم

قصير القوائم ، ويقال له : الصبيّ .

والسلوقى بفتح السين المهملة ، نسبة إلى سلوق ، وهي أرض أو قرية باليمن ،

وذهب الجوهري إلى أنها مدينة بالشام ، قال القطامي :

معهم صوّارٍ من سلوق كأنها حصن تجول تجرّ الأرسانا

وفي معجم ياقوت نقلا عن ابن الخائك ، وهو يذكر اليمن : سلوق كانت

مدينة عظيمة بأرض الجديد ، واسم بقعتها اليوم حسل الزينة . إلى أن قال : وإليها

كانت العرب تنسب الدروع السلوقية والكلاب السلوقية . انتهى . وقيل : سلوق

بلد بطرف أرمينية يعرف ببلد الآن ، وتنسب إليه الكلاب . وقيل : بل هي

منسوبة إلى سلقية بفتح السين وياء مفتوحة مخففة : بلد بالروم ، فلما نسبوا

إليه قالوا : سلوق ، فغيروا النسب . وجاء في اللسان : سلوق أرض باليمن ، وفي

التهذيب : قرية باليمن ، وهي بالرومية : سلقية . انتهى . فسلفية على هذا في اللغة

الرومية هي سلوق التي باليمن . والله أعلم . أما علماء الحيوان من الأفرنج اليوم ،

فيقسمون السلوقى إلى عدة أنواع ، لكل صقع نوع ؛ واسمه في لغة الفرنسيين لفرية

(Lévrier) ويذهبون إلى أن أنواعه تفرعت من جنس أصلي كان في سهول غربي

آسيا ، ولهم في تعديدها كلام كثير ليس هذا موضعه . ورأيت في المعجم الكبير

للأروم أن السلوقى (Sloughi) الحقيقي يوجد في الأقاليم الهندية الغربية ، وهو

أصهب اللون .

والنَّصِيبِي بفتح النون وكسر الصاد المهملة ، نسبة إلى نصيبين ، ويقال في النسبة إليها : نَصِيبِيْنِيْ أيضاً . وهي ثلاثة مواضع : مدينة من بلاد الجزيرة ، وقرية من قرى حلب ، ومدينة بشاطئ الفرات ، تعرف بنصيبين الروم . ولم أر أحداً نص على اشتهاً واحدة منها بنوع من الكلاب ينسب إليها ؛ فإما أن يكون الناظم رآه في كتاب لم نطلع عليه ، أو يكون أراد الصَّيْنِيَّ ، فخرَّفه الناسخ ، وعلى هذا يكون الشطر (كذلك الصَّيْنِيْ بذاك أشبهه) أو نحو ذلك . وقد مر بك عن الديميرى في « حياة الحيوان » أن القلطي يقال له : الصيني . فقول الناظم (بذاك أشبهه) بعد ذكره القلطي ، يرجح أنه أراد الصيني . على أن كثيراً من أئمة اللغة لم يذكروا الصيني إلا في معرض ردّه وتغليط قائله ؛ فقالوا : كَلْبُ زَيْنِيْ : قصيرٌ ، ولا تقل صيني . ورأيت الجاحظ جمع بينهما في كتاب الحيوان فقال : (والكلب الزَّيْنِيُّ الصينيُّ يُرَجَّح على رأسه ساعات كثيرة من الليل ، فلا يتحرك . وقد كان في بني ضبة كلب زئني صيني يُسْرَج على رأسه ، فلا ينبض فيه نابض ، ويدعونه باسمه ، ويُرْمَى إليه بَبْضعة اللحم ، والمسرجة على رأسه ، فلا يميل ولا يتحرك ، حتى يكون القوم هم الذين يأخذون المصباح من رأسه ؛ فإذا أزيل عن رأسه وثب على اللحم فأكله . دُرْبٌ فَدَرِبٌ ، وَثُقْفٌ فَثُقْفٌ ، وَأُدْبٌ فَقَبَلٌ) . وعلى كل حال فالصيني ذكره ، وإن خطأ بعضهم قائله ، بخلاف النَّصِيبِي ، فأنا لم نر أحداً ذكره فيما نعلم .

(١١) المستطير بالسين والطاء والراء المهملة جميعها : الكلب الهائج ؛ أي الطالب السَّفاد . وأراد الناظم بالعباب : كتاب العباب الزاخر في اللغة ، وهو كتاب كبير يقع في عشرين مجلداً للإمام حسن بن محمد الصَّاعِقَانِيْ أو الصَّغَانِيْ المتوفى سنة ٦٥٠ ، بلغ فيه إلى الميم ، ووقف في مادة بكم ، ومات قبل إتمامه ؛ ولهذا قيل :

إِن الصَّغَانِيَّ الَّذِي حَازَ الْعُلُومَ وَالْحِكْمَ
كَانَ قُصَارَى أَمْرِهِ أَنْ انْتَهَى إِلَى بَيْتِكُمْ

(١٢) الدَّرْصُ بِتَثْلِيثِ الدَّالِ الْمَهْمَلَةِ وَسُكُونِ الرَّاءِ وَبَعْدَهَا صَادٌ مَهْمَلَةٌ : وَلِدِ الْكَلْبِ ، وَكَذَلِكَ الْجَزْوُ مَثَلَتْ الْأَوَّلَ .

(١٣) السَّمْعُ بِكَسْرِ السَّيْنِ الْمَهْمَلَةِ وَسُكُونِ الْمِيمِ وَبَعْدَهَا عَيْنٌ مَهْمَلَةٌ ، أوردته النَّاظِمُ عَلَى أَنَّهُ مِنْ أَسْمَاءِ وَلِدِ الْكَلْبِ ، نَقْلًا عَنِ الصَّوَلِيِّ . وَالَّذِي فِي مَادَّةِ (س م ع) مِنْ كِتَابِ اللُّغَةِ أَنَّهُ سَبْعٌ مَرَكَّبٌ ، وَهُوَ وَلِدُ الذُّبِّ مِنَ الصَّبْعِ ، وَمِنْ أَمْثَالِهِمْ : (أَسْمَعُ مِنْ سَمِعَ) وَمِنْ السَّمْعِ : الْأَزَلُ . قَالَ :

تَرَاهُ حَدِيدَ الطَّرْفِ أَبْلَجٌ وَاضِحًا أَغْرَ طَوِيلَ الْبَاعِ أَسْمَعُ مِنْ سَمِعَ
ثُمَّ رَأَيْتَ فِي مَادَّةِ (خ ي ه ف ع) مِنَ اللِّسَانِ أَنَّهُ وَلِدُ الْكَلْبَةِ مِنَ الذُّبِّ
نَقْلًا عَنِ الْأَزْهَرِيِّ ، وَرَأَيْتَ أَيْضًا فِي جِزءِ النَّظْمِ سَمَاءَ « التَّهْدِيبِ فِي أَسْمَاءِ النَّدِيبِ »
أَنَّ السَّمْعَ بَيْنَ الذُّبِّ وَالْكَالْبِ . وَأَبُو خَالِدٍ : مِنْ كُنَى الْكَلْبِ ، ذَكَرَهُ النَّظْمُ فِي
الْمَرْهَرِ ، وَقَالَ أَبُو السَّعَادَاتِ الْمُبَارِكُ بْنُ الْأَثِيرِ فِي الْمَرْصَعِ : أَبُو خَالِدٍ هُوَ الْكَلْبُ ، مِنْ
قَوْلِكَ : أَخَذَ الرَّجُلُ بِصَاحِبِهِ إِذَا لَزِمَهُ ، وَأَخَذَ بِالْمَكَانِ إِذَا أَقَامَ بِهِ . وَهُوَ كُنْيَةُ
التَّلْعَبِ أَيْضًا . انْتَهَى .

قُلْتُ : وَلِلْكَالْبِ كُنَى أُخْرَى مَسْنُوكَرُهَا فِيمَا اسْتَدْرَكَنَاهُ عَلَى النَّظْمِ بَعْدَ
تَمَامِ الشَّرْحِ .

(١٥ و ١٤) فِي نَسَخَتَيْنِ مِنَ الْأَصْلِ بِاسْقَاطِ لَفْظَةِ (أَيْضًا) مِنْ عَجْزِ الْبَيْتِ ،
فِيصِيرُ الشُّطْرُ : (وَكَلْبَةٌ قَيْلٌ لَهَا كَسَابٌ) وَلَا بَدَّ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ مِنْ كَسْرِ بَاءِ كَسَابٍ
لِلْوِزْنِ ، وَهُوَ مَعَ هَذَا لَا يَلْتَمُّ مَعَ الصَّدْرِ ؛ لِأَنَّ الْعَرُوضَ دَخَلَتْهَا إِحْدَى عِلَلِ الزِّيَادَةِ
وَهِيَ التَّذْيِيلُ ، وَدَخُولُهُ فِي الرَّجْزِ مَغْتَفَرٌ لِلْمَوْلِدِينَ . وَالْبَيْتُ مُصَرَّعٌ ، وَلَا بَدَّ فِي

التصريح من مطابقة الضرب للعروض في الوزن والقافية ؛ فهذا اضطررنا لزيادة
(أيضا) مع التنبيه عليها في الشرح لَيْلَتُمُ الشطران في الوزن . ويمكن أن يقال
بإسقاطها :

وَنَقَلُوا الزُّهَادَ لِلْكَلابِ وَكَلْبَةً قِيلَ لَهَا كَسَابِ

إلا أن احتمال سقوط لفظه من قلم الناسخ سهوا أقرب من تغيير (الزاهدون)
بالزَّهَاد . أما وصف الكلب بالزهد ، فقد وقفت في مجموع على رسالة في خصال
الكلب المحموده ، تنسب للحسن البصرى ، جاء فيها مانصه : (الخصلة الرابعة ، أنه
إذا مات لا يكون له ميراث ، وذلك من أخلاق الزاهدين) وكنت في ريب من
أمر هذه الرسالة ، حتى رأيتها في نفع الطيب مسوقة في ترجمة أبي عبد الله الراعى
الفرناتى ، وذكر أنه أوردها في باب العلم من شرحه على الألفية ، منسوبة للحسن
البصرى . والله أعلم .

ومن أمثالهم في ذلك : (أشكرُ من كلب) إلا أن الأكثرين على وصفه
بالحرص والشره ، ومن أمثالهم فيه (أحرصُ من كلب على جيفة) ومن كلب
على عرق ، والعرق بالفتح : العظم عليه اللحم ، أو الذى أكل لحمه . وقالوا أيضاً
(الأمُ من كلب على عرق) و(أنهمُ من كلب) . وكسَاب كَقَطَام مَبْنِيَا عَلَى
السَّكْسَر : الذئب ، كما فى القاموس ، وفى الصحاح والمخصص أنه اسم كلبية ، وهو
الذى أرادته الناظم . وقد مر بك بيت لبيد الذى ذكر فيه كلبية تسمى بهذا
الاسم . ومثله كَسْبَةٌ بالفتح ، قال الأعشى :

وَلَزَّ كَسْبَةٌ أُخْرَى فَرَعُهَا فَهَقُ

(١٦) العَوْلَقُ بفتح العين المهملة وسكون الواو وفتح اللام وبعدها قاف :
الكلبة الحريصة . والمعاوية الكلبة المستخرمة تعوى إلى الكلاب . ومن طريف

ما يحكى أن جارية بن قدامة دخل على أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان ، فقال له : ما كان أهوتك على أهلك إذ سموك جارية ! فقال : وما كان أهوتك على أهلك إذ سموك معاوية ! وهى الأنثى من الكلاب . ويروى أن شريك بن الأعور دخل عليه وكان دميا ، فقال له معاوية : إنك لدميم والجليل خير من الدميم ، وإنك لشريك وما لله شريك ، وإن أباك لأعور والصحيح خير من الأعور ، فكيف سُدَّتَ قومك ؟ فقال له : إنك معاوية ، وما معاوية إلا كلبة عوت فاستعوت الكلاب ، وإنك لابن صخر والسهل خير من الصخر ، وإنك لابن حرب والسلم خير من الحرب ، وإنك لابن أمية ، وما أمية إلا أمة صُفرت ، فكيف صرت أمير المؤمنين ؟ !

ويشبه هذا ما رواه أبو هلال فى الصناعتين : أن رجلا من قريش قال لخالد بن صفوان : ما اسمك ؟ قال خالد بن صفوان بن الأهم ، فقال الرجل : إن اسمك لكذب ، ما خلد أحد . وإن أباك لصفوان ، وهو حجر . وإن جدك لأهم ، والصحيح خير من الأهم . قال خالد : من أى قريش أنت ؟ قال : من بنى عبد الدار . قال : فثلك يشتم تميما فى عزها وحسبها ، وقد هسمتك هاشم ، وأمتك أمية ، وجمعت بك جمع ، وخزمتك مخزوم ، وأقصتك قصى ، فجعلتلك عبد دارها ، وموضع سنارها ؛ تفتح لهم الأبواب إذا دخلوا ، وتغلقها إذا خرجوا ! انتهى .

واللَعْوَة بفتح اللام وسكون العين المهملة ، واللعاة بفتح العين : الكلبة من غير تخصيص بشره وحرص ، وقال الجاحظ فى كتاب « الحيوان » : يقال أحرص من لعوة ، وهى الكلبة . وفى اللسان وجمع الأمثال للميدانى : (أجوع من لعوة) .
(١٧) العُسْبُورَةُ بضم العين وسكون السين المهملتين وضم الباء الموحدة

وبعدها واو ساكنة وراء وهاء : ولد الكلب من الذئبة ، ويقال له : العسبور أيضاً ، ولهذا قال الناظم (وإن تزلها لا تلم) أى إن نطقت به بدون هاء لا يلومك إنسان ، لأنه مسموع .

(١٨) الخَيْمَفَعَى بفتح الخاء المعجمة وسكون الياء المثناة التحتمية ، وفتح الهاء والفاء والعين المهملة مقصوراً : ولد الكلب من الذئبة . وقد سمع أيضاً بالمد . وفي اللسان : حكى الأزهرى عن أبى تراب قال : سمعت أعرابياً من بنى تميم يكنى أبا الخَيْمَفَعَى ، وسألته عن تفسير كنيته ، فقال : يقال إذا وقع الذئب على الكلبة جاءت بالسَّمْع ، وإذا وقع الكلب على الذئبة جاءت بالخَيْمَفَعَى . قال : وليس هذا على أبنية أسمائهم مع اجتماع ثلاثة أحرف من حروف الحلق ، وقال عن هذا الحرف وعماقيله فى باب رباعى العين فى كتابه : وهذه حروف لا أعرفها ، ولم أجد لها أصلاً فى كتب الثقات الذين أخذوا عن العرب العاربة ما أودعوا كتبهم ، ولم أذكرها وأنا أحققها ، ولكنى ذكرتها استناداً لها وتمجيباً منها ، ولا أدرى ما صحتها . انتهى .

(١٩) الدَّيْسَم بفتح الدال المهملة وسكون الياء المثناة التحتمية وفتح السين المهملة وبعدها ميم : ولد الثعلب من الكلبة ، أو ولد الذئب منها . هكذا فى القاموس واللسان ، وقال الجوهري فى الصحاح : الدَّيْسَم : ولد الثَّوب ، قال : وقلت لأبى الفَوْث : يقال إنه ولد الذئب من الكلبة ، فقال : ما هو إلا ولد الثَّوب . انتهى . وقال الجاحظ : إنه ولد الذئب من الكلبة ، وهو أغبر اللون ، وغبرته ممتزجة بسواد .

(٢٠) الهَرَائِكَة بفتح الهاء والراء وكسر الكاف وفتح اللام : كلاب الماء ، وقول ابن أحمى الباهلى يصف دُرَّة :

رَأَى مِنْ دُونِهَا الْعَوَاصُ هَوَلاً هَرَآكَلَةً وَحِيَتَانًا وَنُونًا
فسره الأزهري في التهذيب بـكـلاب الماء . وقال الصاغاني في العُباب : هي
جِمال الماء ، وقيل : هي ضخام السمك .

(٢١) التُّنْدُسُ كَتَمْفُذٌ ، أَى بضم القاف وسكون النون وضم الدال المهملة
وبعدها سين مهملة : كلب الماء . أمهله القاموس واللسان والمخصص ، وذكره شارح
القاموس والدميري في حياة الحيوان ، ونسبوا تفسيره بذلك لابن دَحِيَّة . كما ذكره
الناظم ، وعبارته تفيد أنه أُهْمِلَ ونُسِيَ .

(٢٢) القُضَاعَةُ بضم القاف وفتح الضاد المعجمة والعين المهملة : اسم كلبة الماء .
(٢٣) شرع الناظم في هذا البيت وما بعده يعدد أسماء ابن آوى ، تبعاً لمن
عده نوعاً من الكلاب ، فذكر من أسمائه: الدَّأَلُ بفتح الدال المهملة وسكون الهمزة
وبعدها لام . والدئَل بضم فكسر ، وقد نصوا على أن لا نظير لها إلا : رُئِم .
والدَّوَل بضمين . والدَّالان محرَّكَةً ، ويقال فيه الدَّالان بفتح الدال المعجمة ،
والدَّوَلان بضمها ، إلا أن الهمزة فيهما ساكنة . والعِلْوَض بكسر العين المهملة
وفتح اللام المشددة ، وسكون الواو وبعدها ضاد معجمة . والنَّوْفَل بفتح النون
وسكون الواو وفتح الفاء وبعدها لام . واللَّعْوَض بفتح اللام وسكون العين
المهملة وفتح الواو ، وبعدها ضاد معجمة . والشَّرْحُوب بضم السين المهملة وسكون
الراء وضم الحاء المهملة وبعدها واو ساكنة وباء موحدة . والوَغ بفتح الواو
وبعدها عين مهملة مشددة . والعِلْوَش بكسر العين المهملة وفتح اللام المشددة
وبعدها واو ساكنة وشين معجمة . والوَغَوَع بفتح الواوين وإسكان العين
الأولى المهملة . والشَّغْبَر بفتح الشين وإسكان الغين المعجمتين ، وفتح الباء الموحدة
وبعدها راء ؛ وبالزاي المعجمة تصحيف . والوَأَوَاء بفتح الواوين وسكون الهمزة
الأولى . وكلها من أسماء ابن آوى .

هذا ما أردنا بيانه، ويتبين منه ثلاثة أمور :

الأول : أن الناظم — رحمه الله — مع استيفائه لكثير من أسماء الكلب قد أدرج فيها بعض صفات يشترك فيها الكلب مع غيره ، ولم نجد مع كثرة البحث نصا على أنها غلبت عليه ، حتى يمكن عدّها في أسمائه ؛ كذكره الزاهد والمندر ، وداعى الكرم ، ومشيد الذكر ونحوها . فالظاهر أنه تسامح في إيرادها ، أو يكون وقف فيها على ما لم تقف عليه . وفوق كل ذى علم عليم .

الأمر الثانى : إيراده أربعة أعلام مشهورة للكلاب نص منها على ثلاثة ، وهى : كَسَيْبٌ وَكَسَابٌ وَكَسْبَةٌ ، وسكت عن واحد وهو سُحَامٌ ، فدل بسكوته على عدّه من أسماء الأجناس ، وكلاهما لا يبرئه من مَعْرَةِ المَعْرَى ؛ لأن جعل سُحَام اسم جنس وَهَمَّ ظاهر . وإيراد ثلاثة أعلام خارج عن مقصود أبى العلاء . إلا أن يكون أوردّها زيادة منه فى الفائدة . وهو أيضاً تقصير ، لاقتصاره عليها ، مع وجود ما هو أشهر منها .

الأمر الثالث : ما فاته من أسمائه ، وهو ما تريد استدراكه هنا ، وبعضه مر أثناء الشرح . فنّها :

« الدَّرْوَاسُ » بكسر أوله ، وهو الغليظ العنق من الكلاب ، وقيل الكبير الرأس منها ، وقول بعضهم :

بِتَنَّا وَبَاتَ سَقِيظُ الطَّلِّ يَضْرِبُنَا عِنْدَ النَّدُولِ قِرَانًا نَبِيحُ دِرْوَاسِ
قيل : إن أولى ما يفسر به : الكلب ، لقوله ، لقوله : قِرَانًا نَبِيحُ دِرْوَاسِ ؛ لأن النبيح إنما هو فى الأصل للكلاب . وقوله : النَّدُولُ ، يجوز أنه عنى به امرأة أو رجلا من النَّدَلِ وهو شبيهه الوسخ ، أو عنى به كَلْبَةٌ . ورواه الجاحظ فى كتاب الحيوان : (بين

البيوت) . وِدِرْوَانٌ أَيْضاً : اسم كلب بعينه . والأظهر أن البيت قيل فيه ، أو في كلب آخر يسمى بهذا الاسم .
و « الأَرْتَم » قالوا سمي بذلك لتشمة الطعام وحرصه . وقد يطلق أيضاً على الذئب .

و « العَفْرَانُ » بالكسر ، وهو الشديد العنق الغليظه من الكلاب ، ومثله « العَفْرَانُ » . و « القَلَّاطُ » بالضم و « القِيلِيْطُ » بالكسر كلاهما القصير المجتمع ، ويقال فيهما : القَلَطِي ، وقد ذكره الناظم .

« والأَغْضَفُ » ومثله « الغَاضِفُ » وهو المسترخي الأذن من الكلاب ، وفرق بينهما ابن الأعرابي فقال : الغاضف من الكلاب المتكسر أعلى أذنه إلى مُقَدِّمِهِ ، والأغضف إلى خلفه ، كذا في اللسان . ثم قال : والغَضْفُ : كلاب الصيد من ذلك صفة غالبه . انتهى : وقول لبيد :

حَتَّى إِذَا يَنْسَ الرُّمَاءُ وَأَرْسَلُوا غُضْفًا دَوَاجِنَ قَافِلًا أَعْصَامَهَا
أراد كلاب الصيد .

و « ابن بُقَيْع » بالتصغير ذكره ابن الأثير في المرصع . و « ابن وَازِعِ وابن زَارِعِ وابن ذَارِعِ وابن ذِرَاعِ وابن بُوَزَعِ وابن عَوَاقِقِ »
فهذه خمسة عشر اسماً للكلب فانت الناظم .
وفاته من أسماء أولاده :

« الضَّرْوُ » بالكسر ، وهو الضاري من أولاد الكلاب . ومثله « الضَّرِي »
و « الأَسْبُورُ » وهو ولد الكلب من الضَّبُع ، كما في حياة الحيوان ومجمع الأمثال ،
عند تفسير قولهم : « أَسْمَعُ مِنْ سَمْعِ » .
وفاته من أسماء ابن آوى :

« البُرْعُل » بالضم ، وهو ولد الوَبْر من ابن آوى .

وفاته من أسماء الكلبة :

« اللَّعَاة » بفتح الحاء ، وهي الكلبة الحريصة ، أو الكلبة مطلقاً من غير تخصيص .

« والبَوْرَعُ » وهي الكلبة الحريصة ، كما في المرصع .

وفاته من كنى الكلب : « أبو حاتم » . و « أبو ذراع » . و « أبو قيس »

و « أبو عامر » لأنه يعمر بيت صاحبه بحراسته إياه . و « أبو عطف » بكسر العين

والتخفيف ، لأنه يعطف على أصحابه ، قال العجاج يصف صائداً :

ذَا أَكْلَبِ كَالْأَمْتِهِمِ الْعِطَافِ يُشْلِي عِطَافًا وَأَبَا عِطَافِ

كذا في المرصع . ورواية الديوان : ذَا أَكْلَبِ نَوَاهِزِ خِيفِ .

ومن أمثالهم في هذا المعنى : « آفٌ مِنْ كَلْبٍ » .

ولهم في وفاء الكلب وعطفه على صاحبه أقوال ونوادير كثيرة ، وربما فضلوه

في ذلك على الصاحب والخليل . وقد جمع منها ابن المرزبان جملة صالحة في كتاب

سماه : « فضل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب » وقفت عليه ونقلت منه في

هذه الرسالة . ومن وقف على ما كتبه الجاحظ عن الكلب في كتاب « الحيوان »

رأى عجباً عجاباً . ويذكرون من نوادر وفائه أن الربيع بن بدر كان له كلب قد

رباه ، فلما مات جعل الكلب يتضرب على قبره حتى مات . ولما مات عامر بن

غبرة لزمته كلابه قبره حتى ماتت عنده ، وتفرق عنه الأهل والأقارب . وقال

الشعبي : خير خصلة في الكلب أنه لا ينافق في محبته . وأنشد القنالى في

أماليه لأعرابي :

كَلَابُ النَّاسِ إِنْ فَكَّرْتَ فِيهِمْ أَضُرُّ عَلَيْكَ مِنْ كَلْبِ الْكَلَابِ

لأن الكلب لا يؤذى صديقاً وأن صديق هذا في عذاب

ويأتي حين يأتي في ثياب وقد حُزمت على رجل مُصَاب
فأخزى الله أنواباً عليه وأخزى الله ما تحت الثياب
ومن أغرب ما رأيته ما حكاه الجرجاني في كنياته عن محمد بن حرب قال :
رأيت العتّابي ينادم كلباً، يشرب كأساً ويولفه كأساً . فكلمته في ذلك ، فقال :
إنه يكف عن أذاه وأذى سواه ، ويشكر قليلى ، ويحفظ مبيتى ومقبلى ، فهو من
بين الحيوان خليلى . قال ابن حرب : فتمنيت أن أكون كلباً لأحوز هذا
النعمة . انتهى . وقد ذكر ابن المرزبان هذه القصة لإبراهيم الموصلى مع الفضل
ابن يحيى ببعض اختلاف . والله أعلم .

ولم يذكر الناظم من كنى الأتني شيئاً وهي :

« أم عولق » و « أم ذراع » و « أم الهمرش » بتشديد الميم المفتوحة كما في
المرصع : وفي القاموس واللسان : الهمرش اسم كلبية . و « أم يعفور » قال في
المرصع : هي الكلبية ، وأنشد :

يا أم يعفور سقائك العهدُ لا زال من صيدٍ عليك لبُدُ

يقول : لا زال عليك مما تصيدين لبُدُ من وَبَر الأرانب وغيرها . واليعفور في
الأصل : ولد الظبية وولد البقرة الوحشية . و « أم العاويات » والعاويات أولادها .
وكذلك لم يذكر من كنى ابن آوى شيئاً ، وهي :

« أبو ذؤيب » . و « أبو كعب » . و « أبو معاوية » . و « أبو أيوب » .
و « أبو وائل » . والله أعلم .

أما أعلام الكلاب المشهورة التي عنوا بذكرها فكثيرة منها :

سُحَيْمٌ ، وَطِحَالٌ ، وَأَكْدَرٌ ، وَوَأَشِقٌ ، وَزُهْمَانٌ ، وَمَيْلَعٌ ، وَبَرَأْقِشٌ ،
وَجَدَلَاءٌ : كَلْبَاتٌ . وَالْمُخْتَلِسُ ، وَغَلَابٌ ، وَالْقَنْيِصُ ، وَسَلْهَبٌ ، وَسِرْحَانٌ ،

والمَغْنَطِيسُ، هي خمسة أكلبٍ كانت لرجل اسمه ذريح، وآخر اسمه أبو دُجَانَةَ،
يصيدان بها الظباء .

وقرَّحان: اسم كلب له قصة تحاميت عن ذكرها، حبس سيدنا عثمان بن
عفان بسببها ضابئي بن الحارث البرُّجُمي .

وضُمُرَان بالضم وبالفتح، وروى بهما في قول النابغة:

فهاب ضُمُرَانُ منه حِينُ يُوَزَعُهُ طَمَنُ المَعَارِكِ عِنْدَ المُجَحَّرِ النَّجْدِ

هو اسم كلب .

وضَبَّار بتشديد الباء الموحدة، الذي قال فيه الحارث بن الخزرج الخفاجي:

سَفَرْتُ فقلت لها هَجَجٌ فَتَبَرَّقَمَتْ فَذَكَرْتُ حِينَ تَبَرَّقَمَتْ ضَبَّارًا

وَتَزَيَّيْتُ لَتَرَوَعَنِي بِجَمَالِهَا فَكَانَ مَا كُسيَ الجَمَارُ خَارًا

فَخَرَجْتُ أَعْتَرُ فِي قَوَادِمِ جُبَّتِي لولا الحياءَ أَطَرْتُهَا إِحْضَارًا

هو اسم كلب له، وقوله: هَجَج زجر للكلب . وكان لسليمان بن داود الهاشمي

كلب صيد يسمى زُنْبُورًا، وفيه يقول أبو نواس:

إذا الشياطين رَأَتْ زُنْبُورًا قد قُلِّدَ الحَلَقَةَ والسُّيُورًا

من أرجوزة يقول في آخرها:

فَأَمْتَعَ اللهُ به الأَمِيرَا رَبِّي وَلَا زَالَ بِهِ مَسْمُورَا

ومن طرائفهم ما رواه الراغب في محاضراته لأبي نَجَّحَن، في رجل اسمه:

وَتَابُ واسم كلبه: عمرو، ورواها في موضع آخر من هذا الكتاب لابن أبي عتيق،

باختلاف في الرواية .

وَلَوْ هَيَّا لَهُ اللهُ من التوفيق أَسْتَبَا

لَسَمَّى نَفْسَهُ عَمْرًا وَسَمَّى الكَلْبَ وَتَابَا

قلت : تذكرت بهذين البيتين قصة ظالم ، لما جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم يريد الإسلام ، وكان معه كلب له اسمه : راشد ، فسأله عليه السلام عن اسمه واسم كلبه ، فلما أخبره ضحك عليه السلام ، وقال : اسمك راشد واسم كلبك ظالم . وفي رواية أنه كان يسمى غاوى بن ظالم ، فسماه عليه السلام راشد بن عبد الله . وسبب إسلامه أنه كان سادنا لصم اسمه سواع ، فرأى يوماً ثعلباً يعدو عليه ببوله ، فكسره ، وقال فيه :

أَرَبُّ يَبُولِ الثُّعْلُبَانُ بِرَأْسِهِ لَقَدْ ذَلَّ مِنْ بَأْتٍ عَلَيْهِ الثُّعَالِبُ

وفي القصة ، ورواية هذا البيت ونسبته لراشد ، اختلاف ليس هذا محل ذكره . وكان لميمونة أم المؤمنين رضى الله عنها كلب اسمه مِسْمَارٌ . قال صاحب القاموس : إنه مرض ، فقالت : وَاَرْحَمَتَا لِمِسْمَارٍ . وفي كتاب «فضل الكلاب على كثير من لبس الثياب» لابن العَرُزْبَانَ ، أنها رضى الله عنها كانت إذا حجبت خرجت به معها ؛ فليس يطعم أحد في القرب من رحلها مع مسمار ، فإذا رجعت جعلته في بني جَدِيلَةَ ، وَأَنْفَقَتْ عَلَيْهِ ، فلما مات قيل لها : مات مسمار ، فبكت وقالت : فُجِعْتُ بِمِسْمَارٍ .

وفي هذا القدر كفاية فقد كدنا نخرج عن المقصود . ولولا خوف الإطالة لذكرت أيضاً ما ورد من أمثالهم في الكلب ، وهي كثيرة تربو على خمسة وخمسين مثلاً ، على أن ما ذكرناه وإن طال فلا يخلو من فائدة ، وفي التنقل جَمَامٌ لِلْأَنْفَسِ .

رَجَعُ إِلَى أَبِي الْعَلَاءِ

وعلى الجملة فلا يختلف اثنان في علمه وفضله ، ووقوفه على دقائق العربية ،
ولا عبرة بمن لحنه في قوله :

يَذِيبُ الرَّعْبُ مِنْهُ كُلَّ عَضْبٍ فَلَوْلَا الْعِمْدُ يَمْسِكُهُ لَسَالَا
بأن مذهب الجمهور وجوب حذف الخبر بعد لولا ، بناء على أنه لا يكون إلا
كوناً مطلقاً ، فإذا أريد السكون المقيد جعل مبتدأ ، فكان عليه أن يقول : فلولا
إمساك العمد إياه لسال ، أى موجود ؛ وأما التركيب الذى أتى به فتركيب فاسد .
انتهى .

قلت : وهذا المخطئ هو المخطئ لاحتال تقدير يمسكه جملة معترضة بين المبتدأ
والجواب والخبر محذوف ، أو تقدير يمسكه بدل اشتغال على أن الأصل أن يمسكه ،
ثم حذف أن وارتفع الفعل ، وعلى هذا فالخبر محذوف أيضاً . والمعنى : فلولا العمد
إمساكه موجود لسال . انتهى ملخصاً من المعنى وحواشيه . هذا إذا خرجنا
البيت على مذهب الجمهور الذى تمسك به المعارض ، والمذهب الحق ما ذهب إليه
ابن مالك والرمانى وابن الشجرى والشلوبين ؛ بأن الخبر إذا كان كوناً مقيداً ،
ولم يدل عليه دليل ، وجب ذكره ، وإن دل عليه دليل جاز إثباته وحذفه . وعليه
فلا وجه للتخطئة فى البيت ، فضلاً عن ورود مثله فى الكلام الموثوق به .

وأما ذكاؤه وسرعة فهمه وقوة حافظته ؛ فقد رووا فيها غرائب ، منها ما ينوب
العقل عن تصديقه . وقد صرح صاحب معاهد التنصيص بأن للناس فى ذلك
حكايات مشهورة يضعونها ، وغالبها مستحيل . إلا أن اشتراط استيفاء أخباره
يقضى بذكر ما وقفنا عليه منها ، وعلى القارى تمييز الغث من السمين .

فمن ذلك : ما نقل عن تلميذه التبريزى أنه كان قاعداً بين يديه فى مسجد بمصر

النعمان يقرأ عليه شيئاً من تصانيفه . قال : وكنت أقمت عدة سنين لم أر أحداً من أهل بلدى ، فدخل المسجد بعض جيراننا للصلاة ، فرأيتُه وعرفته ، فتغيرت من الفرح ، فقال لى أبو العلاء : أى شىء أصابك ؟ فأخبرته خبر الرجل ، فقال : قم وكله ، فقلت : حتى أتم النسق ، فقال : قم وأنا أنتظرُك ، فقامت وكلته بلسان الأذربيجية شيئاً كثيراً ، إلى أن سألت عن كل ما بدا لى . فلما رجعت إليه قال لى : أى لسان هذا ؟ قلت : هذا لسان أهل أذربيجان . فقال لى : ما عرفت اللسان ولا فهمته ، غير أنى حفظت ما قلتما ، ثم أعاد على اللفظ بعينه من غير أن ينقص منه أو يزيد ، فتمعجت غاية العجب ، كيف يحفظ ما لم يفهمه .

ومنه : مارواه بعض طلبته ، أن جاراً له أعجمياً غاب عن المعرة ، وحضر رجل من بلده يبحث عنه ، فوجده غائباً ، ولم يتمكنه المقام ، فأشار عليه أبو العلاء أن يذكر حاجته ، فجعل الرجل يتكلم بالفارسية وأبو العلاء مصغراً إليه ، ولم يكن يعرفها ، إلى أن فرغ من كلامه ، ومضى الرجل . وقدم جاره الغائب ، فجعل أبو العلاء يردد عليه ما سمعه بلفظه ، والرجل يبكى ويستغيث ويطلب ، إلى أن فرغ من الحديث . وسئل عن حاله ، فأخبر أنه أخبر بموت أبيه وإخوته وجماعة من أهله . وهذه الحكاية حكها الوطواط فى «الغرر والعرر» على غير هذا الوجه . قال : ومن عجيب حكاياته أن أباً زكريا التبريزى كان يقرأ عليه فاتاه رسول من عند أهله من تبريز ، فجاء حلقمة أبى العلاء ، فسأل عنه ، فأخبر أنه غائب فى بعض شأنه . فقال له أبو العلاء : ما تريد به ؟ قال : جئت برسالة من عند أهله . فقال : هاتها حتى نوصلها إليه ، قال : إنها مشافهة ، قال : فأسمعناها حتى نوصلها إليه . قال : إنها بالفارسية . قال : لا عليك أن تسمعناها ولا تسقط منها حرفاً . فأوردها عليه . فلما جاء التبريزى أخبر أن رجلاً جاء من تبريز ومعه رسالة

من أهله ، فقال : ليتكم أخذتموها منه ، فإني مشوق لما يرد من أخبارهم . فقيل له : إنه قال إنها مشافهة . فتأسف لذلك . فلما رأى أبو العلاء تأسفه ، قال له : لا عليك ، إني سمعتها منه وحفظتها . ثم أملاها عليه . فجعل التبريزي يضحك مرة ، ويبكي مرة ، فسأله أبو العلاء عن ضحكك وبكائه ، فقال : تارة تخبرني بما يسرني فأضحك ، وتارة تخبرني بما يحزنني فأبكي . انتهى .

ومنه : ماحكاه الأمير أسامة بن مُنقذ ، قال : كان بأنطاكية خزانة كتب ، وكان الخازن بها رجلاً عَليوياً ، جلست يوماً عنده ، فقال لي : قد خبأت لك خبيثة لم تسمع بمثلا في تاريخ . فقلت : وما هي ؟ قال : صبي دون البلوغ ضير يتردد إلى ، وقد حفظته في أيام قلائل عدة كتب ، وذلك أني أقرأ عليه الكراسة والكراستين مرة واحدة ، فلا يستعيد إلا ماشك فيه ، ثم يتلو عليّ ماسمعه . قلت : فلعله يكون محفوظاً له ! فقال : سبحان الله ! كل كتاب في الدنيا يكون محفوظاً له ، ولئن كان كذلك فهو أعظم . ثم حضر المشار إليه ، وهو صبي دميم الخلق ، مجذّر الوجه ، على عينيه بياض من أثر الجدرى ، كأنه ينظر بإحدى عينيه ، وهو يتوقد ذكاء ؛ يقوده رجل طويل أحسبه من أقاربه . فقال له الخازن : يا ولدي ، هذا السيد رجل كبير القدر ، وقد وصفتك له ، وهو يجب أن تحفظ اليوم ما يختاره لك ، فقال : سمعا وطاعة ، فليختر ما يريد . قال ابن منقذ : فاخترت شيئاً وقرأته عليه وهو يموج ويستزيد ، فإذا مر بشيء يحتاج إلى تقريره في خاطره ، يقول : أعد هذا ، فأعيده عليه ، حتى أتيت على ما يزيد على كراسة ، ثم قلت : يُقنع هذا من قبل نفسي . قال : أجل حرسك الله . وتلأ على ما أمليته عليه ، وأنا أعارضه بالكتاب حرفاً حرفاً ، فكاد عقلي يذهب لما رأيت منه ، وعلمت أن ليس في العالم من يقدر على ذلك إلا إن شاء الله . وسألت عنه ،

فتبيل لي : هذا أبو العلاء المعري من بيت العلم والقضاء والثروة والغنى . هكذا
يروون هذه الحكاية ، والأمير أسامة المذكور ولد سنة ٤٨٨ هـ أي بعد موت
أبي العلاء بنحو تسع وثلاثين سنة ، فالقصة على هذا موضوعة ، اللهم إلا أن
تكون وقعت مع بعض أمراء بني منقذ ، ممن تقدم أسامة .

ومنه : أن سمّاناً حاسب عميلاً له برقاع كان يثبت فيها ما يأخذه منه عند
حاجته ، وكان أبو العلاء في غرفة يسمع محاسبتها ، وبعد مدة ضاعت الرقاع
من السمّان ، فأخذ يتأمل ويتأذى . وبلغ أبا العلاء خبره ، فقال له : ما عليك من
بأس ، أنا أملي عليك حسابها . وجعل يمليه عليه على ما في الرقاع رقعة رقعة ،
والسمّان يكتبها . ثم وجد بعد ذلك رقاعه ، فإذا هي مطابقة لما أملاه أبو العلاء .
وهذا إن صح ، فهو غاية الغايات في قوة الحفظ والتعليق .

وقريب مما تقدم ، ما روى عن أبي تمام حين سمع البحترى ينشد قصيدته
التي أولها :

أأفاق صبّ من هوّى فأفيعا أم خان عهداً أم أطاع شفيقا

فلما فرغ من إنشادها ، أقبل عليه باللوم والتقريع ، واتهمه بسرقة شعرة ،
ثم اندفع بعين القصيد حتى أتى على أكثرها . والقصة مشهورة . ومثله ما روى
عن الثنبي في حفظه كتاباً عرض عليه للبيع في نحو ثلاثين ورقة . وروى مثله
الإمام أبو العباس البرد ، وهو الثقة فيما ينقل ، فذكر في كامله أن ابن عباس
رضي الله عنه لما أنشده عمر بن أبي ربيعة كلمته : (أَمِنْ آلِ نُعْمٍ أَنْتِ غَايِدِ
قَمْبِكِرُ) ، ولم يكن سمعها من قبل ، استظهرها من مرة واحدة ، وأعادها
على الحضور . إلا أن ما نقل عن المعري يفوق كل ذلك .

وذكروا أن أبا نصر أحمد بن يوسف المنازى ، دخل على أبي العلاء وهو

بالشام في جماعة من أهل الأدب ، وأنشده قوله :

وقاناً لفحة الرمضاء وإِدِ سقاء مُضَاعَفُ الفَيْثِ العَمِيمِ
نزلنا دوحه^(١) فحنا علينا حنو المرضعات^(٢) على العظيم
وأرشفنا^(٣) على ظمأ زلالا ألد من المدامة للنديم
يصد الشمس أتى واجهتنا فيحجبها ويأذن للنسيم
تروع حصاه حالية العذاري فتلمس جانب العقد النظيم

فقال أبو العلاء : أنت أشعر من بالشام . ثم رحل أبو العلاء إلى بغداد ،
فدخل عليه المنازي في جماعة من أدباؤها ، وهو لا يعرف منهم أحداً ، فأنشده
من أشعارهم ، وأنشده المنازي :

لقد عرض الحمام لنا بسجع إذا أصغى له ركب تلاحى
شجى قلب الخلى فقيل : غنى وبرح بالشجى فقيل : ناحا
وكم للشوق في أحشاء صب إذا اندملت أجد لها جراحا
ضعيف الصبر عنك وإن تقاوى وسكران الفؤاد وإن تصاحا
كذلك بنو الهوى سكرى حجة كأحداق المها مرضى صحاحا

فقال أبو العلاء : ومن بالعراق ! عطفاً على قوله : من بالشام . والراجح عندي
أن هذه القصة موضوعة ، لا لغرابتها ، فإن فيما تقدم في قصته مع السّمان وغيره
ما هو أغرب وأعجب ، ولا يبعد على من يستظهر أوراق الحساب رقعة رقعة ،
أن يسمع صوت المنازي ونغمته في إنشاده ، فيعيه ويعرفه بعد ذلك من كلامه ؛
بل لأن الثابت في الأبيات الميمية أنها لمحدونة^(٤) بنت زياد الأندلسية ، أثبت

(١) وروى : تظل غصونه تحنو علينا .

(٢) وروى : الودات .

(٣) وروى : وأسقانا .

(٤) ورد اسمها في بعض التواريخ : حدة ، وفي بعضها : حمدة ، وفي بعضها : حمدونة .

ذلك مؤرخو الأندلس ، وجزم به أبو جعفر الرعيني الأندلسي ، وهو من الراحلين إلى المشرق . وملخص ما قاله في شرحه على بديعية صاحبه ابن جابر : أن بعض المشاركة غرهم بعدُ ديارها ، وخلو بلادهم من آثارها ، فانتحلوا أشياء من شعرها . ومن ذلك نسبتهم أبياتها الميمية للمنازي من شعرائهم . قال : وقد رأيت بعض المؤرخين من أهل بلادنا أثبتوها لها قبل أن يخرج المنازي من العدم إلى الوجود ، ويتصف بلفظة الوجود . انتهى . أما الأبيات الحائية فالراجح أنها للمنازي ، ونسبها الصفدي في شرحه على لامية العجم لابن قاضي ميملة . والله أعلم .

وقال كمال الدين بن العديم في تاريخ حلب : بلغني أن المنازي عمل هذه الأبيات ليعرضها على أبي العلاء ، فلما وصل إليه أنشده إياها ، فجعل كلما أنشده المصراع الأول من كل بيت ، سبقه أبو العلاء إلى المصراع الثاني الذي هو تمام البيت كما نظمه . ولما أنشده : (نزلنا دَوْحَهُ فحنا علينا) قال أبو العلاء : (حنو الوالدات على الفطيم) فقال المنازي : إنما قلت على اليتيم . فقال أبو العلاء : الفطيم أحسن . انتهى والله أعلم .

قلت : الشيء بالشيء يذكر ، والحديث ذو شجون . والذي ذكره ابن العديم له نظائر . منها ما رواه طيفور في تاريخ بغداد عن عمارة بن عقيل . قال : أنشدت للمأمون قصيدة فيها مديح له تبلغ مائة بيت ، فابتدأت بصدر البيت فبادرني إلى قافيته ، فقلت : والله يا أمير المؤمنين ما سمعها مني أحد قط . قال : هكذا ينبغي أن يكون ، ثم أقبل علي ، فقال : أما بلغك أن عمر بن أبي ربيعة أنشد عبد الله ابن عباس قصيدته التي يقول فيها :

* تَشُطُّ غَدَاً دَارَ جِيرَانِنَا *

فقال ابن عباس :

* وَللِدَّارِ بَعْدَ غَدٍ أَعَدُّ *

ثم قال المأمون: أنا ابن ذاك . وفي «تحرير التحبير» لابن أبي الإصبع أن ابن عباس لما كمل البيت ، قال له ابن أبي ربيعة : هكذا والله قلت . فقال عبد الله : وهكذا يكون .

وروى أن جريراً والفرزدق حضرا مجلس الوليد بن عبد الملك ، وعدي بن الرقاع ينشد قصيدته :

عَرَفَ الدِّيَارَ تَوْهَمًا فَاعْتَادَهَا من بعد ما درس البلي أبلادها
فلما انتهى إلى قوله : تَرْجِي أَغْنَى كَأَنَّ إِهْرَةَ رَوْقِهِ

تشاغل الوليد عن الاستماع ، وقطع عدي الإنشاد ، فقال الفرزدق لجرير : ما تراه يقول ؟ فقال : أراه يستلب بها مثلاً ، فقال الفرزدق : يا لُكْم ! إنه سيقول : قَلَمٌ أَصَابَ مِنَ الدَّوَاةِ مِدَادَهَا . ثم عاد الوليد إلى الاستماع ، وعاد عدي إلى الإنشاد ، فنطق بالعجز كما قال . فقال جرير للفرزدق : ويحك ! فكأن سمعك مخبوء تحت لسانه ، فقال له : اسكت ، شغلني سبك عن جيد الكلام ، والله لما سمعت صدر بيته رحيمته ، فلما أنشد عجزه انقلبت الرحمة حسدا . وفي رواية العقد الفريد عن الأصمعي أن جريراً هو السابق لعجز البيت لا الفرزدق . وقال زكي الدين بن أبي الإصبع في «تحرير التحبير» : الذي أقوله : إن بين ابن عباس وبين الفرزدق في استخراجهما العجزين كما بينهما في مطلق الفضل ، وفضل ابن عباس رضي الله عنهما معلوم ، وأنا أذكر الفرق . فإن بيت عدي بن الرقاع من جملة قصيدة تقدم سماع معظمها ، وعلم أنها دالية مرهفة بألف موصولة مخرجة بألف منصوبة الروى من وزن معروف ، ثم تقدم في صدر البيت ذكر ظبية تسوق خشفاً لها ، قد أخذ الشاعر في تشبيهه طرف قرنه مع العلم بسواده ، وفي ذلك ما يدل على عجز البيت بحيث

يسبق إليه من هو دون الفرزدق من حذاق الشعراء . وبيت عمر مفرد لم تعلم قافيته من أى ضرب هى من القوافى ، ولا رويته من أى الحروف ، ولا حركة رويته من أى الحركات ، فاستخراج عجزه ارتجالاً فى غاية العسر ، ونهاية الصعوبة ، لولا ما أمد الله به هؤلاء القوم من المواد التى فضلوا بها عن غيرهم . ومن حذق عبد الله ابن العباس رضى الله عنهما ، ودقيق معرفته باختيار الكلام ، جعله قافية الذى أتى به (أبعد) ولم يجعلها (أنزح) وكان ذلك ممكناً له ، لكون (أبعد) أسرع ولوجاً فى السمع ، وأسبق إلى الذهن ، وأدخل فى القلب ، وأكثر استعمالاً ، وأعرف عند الكافة ، وبها جاء القرآن العزيز دون أنزح ، وهى أحب إلى اللسان ، وأولى بالبيان . انتهى كلامه بنصه .

وقد عني أن أورد هنا قصيدة عدي بن الرقاع ، لأنها لا توجد برمتها فى كتب الأدب المتداولة فى الأيدي ، مع تشوق كثير من الأدباء للوقوف عليها . قال عدي بن الرقاع يمدح الوليد بن عبد الملك أحد الخلفاء من بني أمية :

عَرَفَ الدِّيَارَ تَوْثَمًا فَاغْتَادَهَا ^(١)	من بعد ما درسن البلى أبلادها
إِلَّا رَوَاسِيَ كُلِّهَا قَدْ اضْطَلَى	جمرًا وأشعل أهلها إيقادها ^(٢)
كَانَتْ رَوَاحِلَ الْقُدُورِ فَعُرِّبَتْ	منهن واستلب الزمان رمادها
وَتَنَكَّرَتْ كُلَّ التَّنَكَّرِ بَعْدَنَا	والأرض تعرف بعلها ^(٣) وجمادها
وَلرُبَّ وَاضِحَّةِ الجَبِينِ خَرِيدَةٍ	بيضاء قد ضربت به أوتادها ^(٤)

(١) اعتادها : أعاد النظر إليها مرة بعد أخرى لدروسها حتى عرفها ، والرواية فى الأغاني واللسان : شمل بدل درس . والأبلاد : جمع بلد وهو الأثر .

(٢) رواية الأغاني : رواكيد ، بدل : رواسى ، و : جمرأ أشعل ، بدل : جمرأ وأشعل .

(٣) البيل : الأرض المرتفعة التى لا يصيبها مطر إلا مرة واحدة فى السنة ، والجماد : الباسة

التي لم يصبها مطر ولا شئ فيها .

(٤) رواية الأغاني :

ولرب واضحة العوارض طفلة كالريم قد ضربت به أوتادها

تَضَطَّادُ بَهْجَتِهَا الْمُعَلَّلُ بِالصَّبَا
كَالطَّبِيئَةِ الْبِكْرِ الْفَرِيدَةِ تَرْتَعِي
خَصِيْبَتْ بِهَا عَقْدُ الْبَرَاقِ حَنِينِهَا
كَالزَيْنِ فِي وَجْهِ الْعُرُوسِ تَبَدَّلَتْ
تُرْجِي أَعْنَ كَأَنَّ إِزْرَةَ رَوْقِهِ
رَكِبَتْ بِهِ مِنْ عَالِجٍ مُتَحَجِّراً
فَقَرَى مَحَانِيَهُ الَّتِي تَسْقُ الثَّرَى
بَانَتْ سَعَادُ وَأَخْلَفَتْ مِيعَادَهَا
إِنِّي إِذَا مَا لَمْ تَصْنِي خُلَّتِي
إِنَّمَا تَرَى شَيْبِي تَقْشَعُ لَيْتِي
فَلَقَدْ تَنَيْتُ يَدَ الْفَتَاةِ وَسَادَةَ
وَأَصَاحِبِ الْجَيْشِ الْعَرْمَزَمِ فَارِسَا
وَقَصِيْدَةِ قَدِ بَتَّ أُنْجَعُ بَيْنَهَا
نَظَرَ الْمُتَقَفِّ فِي كُمُوبِ قَنَاتِهِ
فَسَتَرْتُ عَيْبَ مَعِيشَتِي بِتَكْرُمِ
وَعَلِمْتُ حَتَّى مَا أَسْأَلُ وَاحِدَا

عَرَصًا فَتَقْصِدُهُ وَانَّ يَصْطَادَهَا (١)
مِنْ أَرْضِهَا قُفَّاتِهَا وَعِيَادَهَا
عَنْ عَكْرِهَا عَلَجَانِهَا وَعَرَادَهَا
بَعْدَ الْحِيَاءِ فَلَاعَبَتْ أَرْوَادَهَا (٢)
قَلَمٌ أَصَابَ مِنَ الدَّوَاةِ مِدَادَهَا (٣)
قَفْرًا تُرِيثُ وَخَشُهُ أَوْلَادَهَا
وَالهَبْرَ يُونِقُ نَبْتِهَا رُوَادَهَا (٤)
وَتَبَاعَدَتْ عَنَّا لَتَمْنَعُ زَادَهَا
وَتَبَاعَدَتْ عَنِّي اغْتَفَرْتُ بَعَادَهَا (٥)
حَتَّى عَلَا وَضَحُ بُلُوحِ سَوَادَهَا (٦)
لِي جَاعِلَا يُسْرَى يَدِي وَسَادَهَا
فِي الْخَيْلِ أَشْهَدُ كَرَّهَا وَطِرَادَهَا
حَتَّى أَقُومَ مَيْلَهَا وَسِينَادَهَا
حَتَّى يُقِيمَ ثِقَافَهُ مُنَادَهَا
وَأَتَيْتُ فِي سَمَةِ النَّعِيمِ سَدَادَهَا
عَنْ عِلْمِ وَاحِدَةٍ لَكِي أَرْوَادَهَا

- (١) المعلل بالصبا : المشغول به المتلهي ، وأقصده : رماه بسهم فقتله .
(٢) الأرواد : جمع رثد بالكسر ، وهو الترب ، وأكثر ما يكون في الإناث .
(٣) الروق : القرن .
(٤) تسق تجمع ، والمراد تكريم نباتها . والهبر : الطمئن من الأرض ، وقد ضبط في لسان العرب : نبتها بالنصب وروادها بالرفع ، والصواب العكس .
(٥) الحلة بالضم : الخليل ، يستوي فيه الذكر والمؤنث ؛ لانه في الأصل مصدر .
(٦) لاحه : غيره .

صلى الإله على امرئٍ ودَعْتُهُ
 وإذا الرِّبيعُ تَتَابَعَتْ أَنْوَاؤُهُ
 نَزَلَ الْوَلِيدُ بِهَا فَكَانَ لِأَهْلِهَا
 أَوْ لَا تَرَى أَنَّ الْبَرِيَّةَ كُلُّهَا
 وَلَقَدْ أَرَاكَ اللَّهُ إِذْ وَلَا كَهَا
 وَعَمَرَتْ أَرْضَ الْمُسْلِمِينَ فَأَقْبَلَتْ
 وَأَصْبَتْ فِي بَلَدِ الْعَدُوِّ مُصِيبَةً
 خَظْفَرًا وَنَضْرًا مَا تَنَاقَلَ مِثْلُهُ
 وَإِذَا نَشَرْتَ لَهُ الشَّنَاءَ وَجَدْتَهُ
 غَلَبَ التَّسَامِيحَ الْوَلِيدُ سَمَاحَةً
 تَأْتِيهِ أَسْلَابُ الْأَعِزَّةِ عَنُوتَةً
 وَإِذَا رَأَى نَارَ الْعَدُوِّ تَضَرَّعَتْ
 بِعَرْمَزِمٍ يَبْدُو الرِّوَابِي ذِي وَعَى
 أَطْفَأَتْ نَارًا لِلْحُرُوبِ وَأَوْقَدَتْ
 فَبَدَتْ بِصَيْرِهَا لَعْنٌ يَبْغِي الْهُدَى
 وَإِذَا غَدَا يَوْمًا بِفَتْحَةٍ نَائِلٍ

وَأَنْتُمْ نِعْمَتُهُ عَلَيْهِ وَزَادَهَا
 فَسَقَى خُنَاصِرَةَ الْأَحْصَى فَبَجَادَهَا (١)
 غَيْثًا أَغَاثَ أَنْبَسَهَا وَبَلَادَهَا
 أَلْقَتْ خَزَائِمَهَا إِلَيْهِ فَقَادَهَا
 مِنْ أُمَّةٍ بِإِضْلَاحِهَا وَرَشَادَهَا (٢)
 وَنَفَيْتَ عَنْهَا مَنْ يُرِيدُ فَسَادَهَا (٣)
 بَلَعَتْ أَقَاصِي غَوْرَهَا وَنِجَادَهَا
 أَحَدٌ مِنَ الْخُلَفَاءِ كَانَ أَرَادَهَا
 جَمَعَ الْمَكَارِمَ طَرْفَهَا وَتِلَادَهَا (٤)
 وَكَفَى قُرَيْشَ الْمُعْضَلَاتِ وَسَادَهَا
 قَسْرًا وَيَجْمَعُ لِلْحُرُوبِ عِتَادَهَا (٥)
 سَامَى جَمَاعَةَ أَهْلِهَا فَأَقْتَادَهَا
 كَالْحَرَّةِ احْتَمَلَ الضَّحَى أَطْوَادَهَا (٦)
 نَارٌ قَدَحَتْ بِرَاحَتِيكَ زِنَادَهَا
 وَأَصَابَ حَرًّا شَدِيدًا حُسَادَهَا
 عَرَضَتْ لَهُ الْغَدَّ مِثْلَهَا فَأَعَادَهَا

(١) خناصرة : بليدة من أعمال حلب ، وهي قصبة كورة الأحص .

(٢) رواية العقدة الفريد والأغاني : ولقد أراد الله .

(٣) رواية الأغاني : وكففت ، بدل : ونفيت .

(٤) الطرف والطريف والطارف : المال المستفاد . والتلاد : القديم الأصلي .

(٥) العتاد بالفتح : العدة والأهبة ، ورواية العقدة الفريد :

لم تأتِه الأَسْلَابُ إِلَّا عَنُوتَةً غصبا ويجمع للحروب عتادها

(٦) الوعى بالمهملة : الجلبة ، والحرة بالفتح : الأرض الصلبة الفليضة ، والمعنى : أن الآل

القي يكون في الضمعي رفع جبالها ، فان رآها الناظر رأى أنها قد طالت وعظمت .

وَإِذَا عَدَّتْ خَيْلٌ مُّبَادِرٌ غَايَةً فَالسَّابِقُ الْجَالِي يَقُودُ جِيَادَهَا (١)
تمت القصيدة . ويروي أن عدياً أنشدها الوليدَ وعنده كثيرٌ ، وكان قد بلغه
عن عدي أنه يطعن على شعره ، ويقول : هذا شعر حجازي مقرر ، إذا أصابه قره
الشام جمد وهلك . فلما أتى عدي على قوله :

وقصيدة قد بتُّ أجمعُ بينها حتى أقومَ ميالها وسنادها
قال له كثير : لو كنت مطبوعاً أو فصيحاً أو عالماً ، لم تأت فيها بميل ولا سناد ،
فتحتاج إلى أن تقومها . ثم أنشد :

نَظَرَ الْمُتَقَفِّ فِي كُؤُوبِ قِنَاتِهِ حَتَّى يُقِيمَ ثِقَافَهُ مُنَادَهَا
فقال كثير : لا جرم أن الأيام إذا تطاولت عليها عادت عوجاء ، ولأن
تكون مستقيمة لا تحتاج إلى ثقاف أجود لها . ثم أنشد :

وَعَلِمْتُ حَتَّى مَا أَسْأَلُ وَاحِدًا عَنْ عِلْمِ وَاحِدَةٍ لَكِنِّي أزدَادَهَا
فقال كثير : كذبت ورب البيت الحرام ، فليمتحنك أمير المؤمنين بأن
يسألك عن صغار الأمور دون كبارها حتى يتبين جهلك ، وما كنت قط أحق
منك الآن حيث تظن هذا بنفسك . فضحك الوليد ومن حضر ، وقطع عدي
ابن الرقاع حتى ما نطق .

وروي عن محمد بن المنجم أنه قال : ما ذُكر لي أحد فأحببت أن أراه ،
فاذا رأيته أمرت بصفعه ؛ إلا عدي بن الرقاع ، لقوله :
وعلمت حتى ما أسأل ... البيت . فكنت أعرض عليه أصناف العلوم
فكلما مر به شيء ، ولا يحسنه ، أمرت بصفعه .

(١) في الأصل : وإذا عدت خيلاً يبادر غاية .

فصل في مؤلفاته

قال أبو العلاء : لزمّت مسكني منذ سنة أربعين ، واجتهدت على أن أتوفر على تسبيح الله وتحميده ، إلى أن أضطر إلى غير ذلك ، فأملت أشياء ، وتولى نسخها الشيخ أبو الحسن علي بن عبد الله بن أبي هاشم ، أحسن الله معونته ، فالزمني بذلك حقوقاً جمّة وأيادي بيضاء ، لأنه أفنى فيّ زمنه ، ولم يأخذ عما صنع ثمنه ، والله يحسن له الجزاء ، ويكفيه حوادث الزمن والأرزاء . انتهى .

وقد رتبنا أسماء هذه الكتب على حروف المعجم ، تسهيلاً على المطالع . واعتمدنا فيما ذكرناه منها على ما في « إرشاد الأريب » لياقوت ، و « كشف الظنون » لمصطفى بن عبد الله الشهير بكاتب جلبي ، وغيرهما من كتب التراجم والأخبار . وتكلمنا على ما وقفنا عليه منها بما يتسع له هذا المختصر :

- (١) أدب العصفورين : رسالة ذكرها ياقوت ، وصاحب كشف الظنون .
- (٢) استغفر واستغفري : كتاب في المنظوم ، به نحو عشرة آلاف بيت ، ويقع في مائة وعشرين كراسة ، ذكره ياقوت ، وأملهه صاحب الكشف .
- (٣) إسعاف الصديق : في ثلاثة أجزاء ، يتعلق بكتاب الجمل في النحو للزجاجي المتوفى سنة ٣٣٩ . ذكره ياقوت ، وصاحب الكشف .
- (٤) إقليد الغايات : كتاب لطيف ، قصره على تفسير ما جاء من اللغز في كتابه : الفصول والغايات ، ذكره ياقوت ، وصاحب الكشف .
- (٥) الأمالي : لم يذكره ياقوت ، وقال صاحب الكشف : هو مائة كراسة ولم يكمله .

(٦) الأييك والعصون : ذكره ياقوت وصاحب الكشف في حرف الكاف في السكتب ، ويسمى أيضاً بالهمزة والردف ؛ لأنه بناء على إحدى عشرة حالة للهمزة في حال إفرادها وإضافتها . مثاله : سماء بالرفع والنصب والخفض ، سماء بالقنوين ، سماؤه سماءه سمانه بالحركات الثلاث مع الإضافة للضمير المذكر ، سماؤها سماءها سمانها بها مع الإضافة للمؤنث ، ثم همزة بعدها هاء ساكنة مثل : عبادة وملاة . فإذا ضربت الإحدى عشرة في حروف المعجم الثمانية والعشرين ، خرج من ذلك ثلاثمائة فصل وثمانية ، وهي مستوفاة في هذا الكتاب . وذكر فيه أيضاً الأرداف الأربعة بعد ذكر الألف . ومبناه على العظاات وذم الدنيا . ومقداره ألف ومائتا كراسة ، تقع في اثنين وتسعين جزءاً كما ذكر ياقوت . وقال ابن خلكان : بلغنى أن له كتاباً سماه الأييك والعصون وهو المعروف بالهمزة والردف ، يقارب المائة جزء ، في الأدب ؛ وحكى لي من وقف على المجلد الأول بعد المائة ، فقال : لا أعلم ما كان يعوزه بعد هذا المجلد .

(٧) بحر الزجر : يتعلق بكتاب « زجر النابج » ، ذكره ياقوت ، ولم يذكر في كشف الظنون .

(٨) تاج الحرة : في عظاات النساء خاصة ، وتختلف فصوله ، فمنها ما يجيء بعد حرفه الذي يثبت ثبات الروى ياء التأنيث ، كقوله : شائى وتشائى وتساى ونحوها . ومنه ما هو مبنى على الكاف نحو غلامك وكلامك . ومنها ما يجيء على تفعلين ، مثل ترغيبين وتذهبين ، وأنواع هذا الكتاب كثيرة ، ويقع في أربعمائة كراسة ، كما في ياقوت وكشف الظنون .

(٩) تضمين الآى : لم يذكره صاحب كشف الظنون ، وقال ياقوت : هو كتاب مختلف الفصول ؛ فمنه طائفة على حروف المعجم ، وقبل الحرف المعتمد

ألف ، مثل أن يقال في الهمة : بناء ونساء ، وفي الباء : ثياب وعباب . ثم على هذا إلى آخر الحروف . ومنه فصول على فاعلين وعلى فاعلون وغير ذلك . والغرض أن يأتي بعد انقضاء الكلام بآية من الكتاب العزيز أو بمض آية ، وربما يجيء بآيتين . قال : والسبب في تأليفه أن بعض الأمراء سأله أن يؤلف كتاباً برسمه ، ولم يؤثر أن يؤلف شيئاً في غير العظا ، والحث على تقوى الله ، فأملى هذا الكتاب ، ويقع في أربعمائة كراسة .

(١٠) تعليق الجليس : مما يتصل بكتاب الجمل للزجاجي ، في جزء واحد . ذكره ياقوت ، ولم يذكر في الكشف .

(١١) تفسير خطبة الفصيح : فسر فيه غريب كتابه خطبة الفصيح . ذكره ياقوت ، وصاحب الكشف .

(١٢) تفسير الهمة والردف : في جزء ، ذكره ياقوت ولم يذكر في الكشف .
(١٣) جامع الأوزان : فيه شعر منظوم على معنى يم به الأوزان الخمسة عشر التي ذكرها الخليل ، بجميع ضروبها ، ويذكر قوافي كل ضرب ، به تسعة آلاف بيت ، ومقداره ستون كراسة في ثلاثة أجزاء . ذكره ياقوت ، وصاحب الكشف .

(١٤) الجلي والجلي : هكذا ورد في نسخة ياقوت ، وكتب مصححه : لعله « الجلي الحلبي » ، سأله فيه صديق له من أهل حلب ، يعرف بابن الحلبي ، مجلد واحد ، وعشرون كراسة . ولم يذكر في كشف الظنون .

(١٥) الحقيр النافع : مختصر في النحو . خمس كراسات ، كما في ياقوت والكشف ، وذكره السيوطي في بغية الوعاة .

(١٦) خادم الرسائل : في تفسير ما تضمنته رسائله من الغريب ، سواء كانت

من الرسائل الطوال ، كالغفران والملائكة ونحوها ؛ أو ما دونها . ولم يذكر فيه إلا ما يحتاج إليه المبتدئون في الأدب ، وسماه صاحب كشف الظنون : خادمة الرسائل .

(١٧) خطبة الفصيح : تكلم فيه عن أبواب الفصيح في خمس عشرة كراسة ، كما في ياقوت والكشف ، وله تفسير غريبه ، وقد مضى ذكره .
(١٨) خُطب الخليل : تكلم فيه على ألسنتها في عشر كراسات ، كما في ياقوت والكشف .

(١٩) خماسية الراح : قال ياقوت : هو كتاب لطيف في ذم الخمر ومعنى هذا الوسم أنه بنى على حروف المعجم ، فذكر لكل حرف تمكن حركته خمس سجعيات مضمومات ، وخمساً مفتوحات ، وخمساً مكسورات ، وخمساً موقوفات . يكون مقداره عشر كراسات . وتصحف اسمه على صاحب كشف الظنون بحجاسة الراح ، فذكره في حرف الحاء .

(٢٠) دعاء الأيام السبعة : ذكره ياقوت .

(٢١) دعاء ساعة : ذكره أيضاً .

(٢٢) دعاء وحرز الخليل : ذكره أيضاً .

(٢٣) ديوان الرسائل : وهي ثلاثة أقسام كالغفران والسندية ونحوها ، وسنذكر منها ما وقفنا على اسمه . ومنها مادون تلك ، كالرسالة الإغريقية ، ورسالة التنيح . ومنها قصار كنعو ما تجرى به العادة في المكاتب . قال ياقوت وصاحب كشف الظنون : إنها تقع جميعها في ثمانمائة كراسة . وقد طبع قسم من هذه الرسائل في بيروت وأكسفورد ، وعندى منها نسختان مخطوطتان في إحداهما مكاتبات جرت بينه وبين ابن أبي عمران داعي الدعاة بمصر ، وهي التي نلخصها

ياقوت في إرشاد الأريب ، وقد مضى أنه شرح رسائله في كتابه : خادم الرسائل .

(٢٤) ذكرى حبيب : ذكره صاحب الكشف ، وقال ياقوت : إنه مختصر في غريب شعرا أبي تمام ، سأله فيه صديق له من الكتاب . مقداره متون كرامته في أربعة أجزاء . وقال ابن خلكان : إنه اختصر ديوان أبي تمام وشرحه وسماه : ذكرى حبيب . وفي مقدمة شرح ديوان أبي تمام للتبريزي أن أبا العلاء إنما ذكر في هذا الكتاب الأبيات المشككة من شعر أبي تمام متفرقة . ومن فوائده التي نقلها عنه أن شعر أبي تمام إنما أغلق ، لأنه لم يؤثر عنه ، فتناقلته الضممة من الرواة ، والجهلة من الناسخين ، فبدلوا الحركة بالحركة ، وأوقعوا الناظر بما جنوه في أم أدراص^(١) وتغلس ، وغيروا الأحرف بسوء التصحيف ، فغادروا الفهم خابطاً في عشواء ؛ لأن تغيير الضمة إلى الفتحة والكسرة ، يُنشِبُ الفطن في حباله ؛ فأما نقل الحاء إلى الخاء ، والذال إلى الذال ، فيحدث عنه إلباس ، ويقرن به بلادة وإشكاس .

(٢٥) الراحة : ثلاثة أجزاء في تفسير لزوم ما لا يلزم . ذكره ياقوت فقط .

(٢٦) راحة اللزوم : يشرح فيه ما في لزوم ما لا يلزم من الغريب ، نحو مائة كرامة ، كما في ياقوت والكشف .

(٢٧) الرسالة الحضية : كذا ذكرها ياقوت .

(٢٨) الرسالة الزعفرانية : ذكرها صاحب الكشف ولم يذكرها ياقوت .

(٢٩) الرسالة السنديية : ذكرت في ياقوت والكشف .

(١) أم أدراص : الداهية . ويقال : وقع في وادي تغلس غير مصروف كتنخيب وتهلك ، في داهية منكورة ، والأصل فيه أن الفارات كانت تقع بكرة بغلس .

(٣٠) رسالة العروض : هكذا في كشف الظنون ، وفي نسخة ياقوت : الفرض
بالفاء ، ولعله القرضُ أو القريض بالقاف .

(٣١) رسالة على لسان ملك الموت : ذكرها ياقوت ، ولا أدري إن كانت
رسالة الملائكة أو غيرها .

(٣٢) رسالة الغفران : كتبها على بن منصور الحلبي المعروف بابن القارح ،
جواباً على رسالة أرسلها له يذكر بها شوقه إلى لقائه ، وينحى فيها على الزنادقة ،
ويتنقص الوزير المغربي صديق أبي العلاء . فأجابه برسالة الغفران ، وضمنها فنونا
شتى من اللغة والأدب ، ونحا فيها نحواً غريباً ، فاستطرد إلى الجنة ، فوصفها وصفا
يشوق النفوس إليها ، ويرغبها في نعيمها ، وذكر النار وأهوالها بطريقة لا تسأمها
النفوس . وقد طبعت هذه الرسالة بمصر سنة ١٣٢٥ ، وعندى منها نسختان
مخطوطتان ، ودار الكتب الخديوية بالقاهرة نسخة من كتب الأستاذ
الشنقيطي — رحمه الله — وفي القُسْطَنْطِينِيَّةِ العظمى نسخة أخرى في خزانة
الكبريلى . وكنت في شوق لرسالة ابن القارح المذكورة ، حتى ظفرت بها في مجموع
نقيس وقع لى .

(٣٣) رسالة الملائكة : اقتصر ياقوت وصاحب الكشف على ذكر اسمها ،
وقال أبو الفضل المؤيد بن الموفق الصاحبى في كتاب « الحكم البوالغ ، في شرح
الكلم النوابع » : رسالة الملائكة ، أنفها أبو العلاء المعرى على جواب مسائل تصريفية
ألقاها إليه بعض الطلبة ، فأجاب عنها بهذا الطريق الظريف المشتمل على الفوائد
الأنيفة . انتهى . قلت : وأسلوبه فيها غريب ، افتتحها معتذراً للسائل بكبر سنه ،
وبعد عهده بالمسائل النحوية والصرفية ، وقربه من الموت . ثم بدأ في الجواب
فقال : « أَفْتَرَانِي أَدَافِعُ مَلَكَ الْمَوْتِ ، فَأَقُولُ : أَصْلُ مَلِكٍ مَأَلَكٌ .. الخ » فساق هذا

البحث في مناقشته مع الملك ، وأتى بشواهد من كلام العرب ، إلى أن انتقل إلى بحث آخر ، فقال : « فيقول الملك : من ابن أبي ربيعة وأبو عبيدة ، وما هذه الأباطيل ؟ إن كان لك عمل صالح فأنت سعيد ، وإلا فاحسأ وراءك ، فأقول : فأهملني حتى أخبرك بوزن عزرائيل ، وأقيم الدليل على أن الهمة فيه زائدة . . . الخ » ثم انتقل إلى ناكر ونكير ، فباحثهما عن اسميهما ، وهكذا حتى أتم الإجابة عن الأسئلة في هذا السياق العجيب . وعندى من هذه الرسالة نسخة مخطوطة ضمن مجموع ، و بدار الكتب الأزهرية بالقاهرة أخرى ، وقد أوردتها السيوطي بتمامها في كتابه الأشباه والنظائر النحوية .

(٣٤) رسائل المعونة : وهي التي كتبها على لسان غيره ، ذكرها ياقوت

وصاحب الكشف .

(٣٥) رسل الراموز : نحو ثلاثين كراسة . ذكره ياقوت .

(٣٦) الرياش المصطنعي : في شرح مواضع من الحماسة الرياشية ، ألفه

للأمير مصطفي الدولة أبي غالب كليب بن علي ، وكان أنفذ إليه نسخة من هذه الحماسة ، وسأله أن يخرج على حواشها شيئاً مما لم يذكره أبو ريش ، فغشى أن تضيق الحواشي عن ذلك ، فصنع هذا الكتاب في أربعين كراسة . ذكر في ياقوت والكشف .

(٣٧) زجر الناجح : يتعلق بلزوم مالا يلزم ، وذلك أن بعض الجهال تكلم

على أبيات من لزوم مالا يلزم ، يريد بها التشرير والأذية ، فألزم أبا العلاء أصدقاؤه بإنشائه ، فأنشأه وهو كاره . مقداره أربعون كراسة في جزء واحد . ذكره ياقوت وصاحب الكشف . وله كتاب يتعلق بهذا ورد اسمه في نسخة ياقوت « بحر

الزجر » وقد مضى ذكره .

(٣٨) السادن : أنشأه في تفسير غريب كتابه الفصول والغايات ، وما فيه من اللغز . مقداره عشرون كراسة . ذكره ياقوت وصاحب الكشف .

(٣٩) السجعات العشر : موضوع على كل حرف من حروف المعجم عشر سجعات في المواعظ . ذكره ياقوت وصاحب الكشف .

(٤٠) سجع الحمام : تكلم فيه على لسان حمام أربع ، وكان بعض الرؤساء سأله أن يصنف له تصنيفاً يذكر فيه ، فأنشأ هذا الكتاب ، وجعل ما يقوله على لسان الحمامة في العظة والحث على الزهد . مقداره ثلاثون كراسة ، في أربعة أجزاء . ذكر في ياقوت والكشف .

(٤١) السجع السلطاني : يشتمل على مخاطبات الملوك والوزراء وغيرهم من الولاة ، سأل فيه بعض من خدم السلطان ، وارتفعت طبقتة ، ولم يكن له قدم في الكتابة ، فطلب أن يُنشأ له كتاب مسجوع من أوله إلى آخره ، ولا يشعر بما يريد ، لقلّة خبرته بالأدب . فآلف له هذا الكتاب . قال ياقوت : في أربعة أجزاء ؛ وقال صاحب الكشف : إنه ثمانون كراسة .

(٤٢) سجع الفقيه : جزء في ثلاثين كراسة . ذكره ياقوت وصاحب الكشف .

(٤٣) سجع المضطرين : كتاب لطيف ، عمله لرجل تاجر مسافر ، يستعين به على أمور دنياه . ذكره ياقوت وصاحب الكشف .

(٤٤) سقط الزند : وهو ديوان يشتمل على أكثر من ثلاثة آلاف بيت ، ضمنه شعره في صباه . وسمّاه بذلك لأن السقط أول نار تخرج من الزند ، فشبه شعره الأول به . قال التبريزي : لما حضرت أبا العلاء ، قرأت عليه كثيراً من كتب اللغة ، وشيئاً من تصانيفه ، فرأيته يكره أن يُقرأ عليه شعره في صباه ،

الملقب بسقط الزند ، وكان يغير الكلمة بعد الكلمة منه إذا قرئت عليه ، ويقول معتذراً عن تأجيله ، وامتناعه من سماع هذا الديوان : مدحت نفسى فيه ، فلا أشتهى أن أسمعه . وكان يحثنى على الاشتغال بغيره من كتبه . انتهى . ولهذا الديوان شروح ، أولها شرح لأبى العلاء نفسه سماه (ضوء السقط) وهو غير واف ، نقله عنه التبريزى ، وأوضح مشكلاته ، وذكر اللغة الغريبة ، واقتصر فى تفسير المعانى على ما لا بد منه . ثم تناوله أبو يعقوب يوسف بن طاهر النحوى ، فأصلحه وزاد فيه ، وسماه : «التنوير» وطبع بمصر غفلاً من اسم مؤلفه . ومن شروح هذا الديوان شرح الفخر الرازى ، و «ضرام السقط» لمجد الدين أبى الفضل قاسم بن حسين بن محمد الخوارزمى المشهور بصدر الأفاضل النحوى ، وقفت على نسخة منه فى خزانة آل رفاعة بالقاهرة . و «الزوائد» لأبى رشاد الإخسيكى ، و «العمدة» لابن البارزى ، وشرح ابن السيد البطلانيورى وهو عزيز الوجود ، وقفت لى منه أوراق من نسخة قديمة ، فإذا به شرح على ديوان ممزوج من سقط الزند واللزوميات . وقد انتقد أبو بكر بن العربى على مواضع منه ، فردّ عليه ابن السيد فى رسالة لطيفة ، وقفت عليها وهى عندى . وللشيخ تاج الدين بن عبد الرحمن شرح على قصيدة لامية من هذا الديوان مطلعها :

* ألا فى سبيل المجد ما أنا فاعل *

سماه : «سراقى العلاء» فى شرح لامية أبى العلاء وهو عندى فى مجموع .

(٤٥) سيف الخطيب : هكذا فى الكشف ، وفى ياقوت «سيف الخطبة» .

وهو جزءان ، يشتمل على خطبة السنة ، فيه خطب للجمع والعبيد والحسوف والكسوف والاستسقاء وعقد النكاح ، وهى مؤلفة على حروف من حروف المعجم ، فيها خطب عمادها الهمزة ، وخطب بنيت على الباء ، وخطب على الدال ،

وعلى الراء ، وعلى اللام ، وعلى الميم ، وعلى النون ، وتركت الجيم والخاء وما
يجرى مجراها ؛ لأن الكلام المقول في الجماعات ينبغي أن يكون سَجَسَجًا^(١) سهلاً .
مقداره أربعمون كراسة . وكان سأله فيه رجل من المتظاهرين بالديانة .

(٤٦) شرح الرسالة الإغريقية : لم يذكره ياقوت ، وذكره صاحب
الكشف . مقداره عشرون كراسة . وللشيخ إبراهيم الفصيح بن صبغة الله
الحيدري ، من علماء أواخر القرن الثالث عشر ، شرح على الرسالة الإغريقية ،
سماه : النوادر الحكيمية والأدبية ، ألفه برسم مصطفى باشا بن إبراهيم بن محمد علي
والى مصر ، وتوجد منه نسخة مخطوطة بدار الكتب الخديوية بالقاهرة .
(٤٧) شرح كتاب سيويوه : فى النحو ، فى خمسين كراسة ، ولم يمه .
كما فى ياقوت والكشف وبغية الوعاة .

(٤٨) شرف السيف . قال ياقوت : عمله لنشتمكين الدرزي الذى كان مقياً
بدمشق ، والسبب فيه أنه كان يوجه إلى أبى العلاء بالسلام ، ويحبنى المسألة
عنه ، فأراد جزاءه على ما فعل . وهو فى جزءين . وفى كشف الظنون : « شرف
السلف عشرون كراسة عمله لأمير الجيوش » .

(٤٩) الصاهل والشاحج : يتكلم فيه على لسان فرس وبغل ، مقداره
أربعمون كراسة ، صنفه لأبى شجاع فاتك الملقب بعزير الدولة والى حلب من قبل
المصريين ، وكان رومياً . ذكره ياقوت ، وصاحب الكشف فى الرسائل . وفى
خطط المقرئى ج ٢ ص ١٥٤ رواية رواها أبو العلاء فى الصاهل والشاحج ،
للبيتين : زروادى القصر . . . الخ .

والشاحج : البغل ؛ وشحيجه ، وشحاجُهُ : صوته .

(١) السجج : الذى بين الصلابة واللين . والهواء السجج : ليس بحار ولا بارد .

(٥٠) ضوء السقط : فسر فيه غريب ديوانه سقط الزند ، مقداره عشرون كراسة . ذكره ياقوت وصاحب الكشف وابن خلكان . وقد فصل بعضهم الدرعيّات من سقط الزند ، وطبعها على حدة في بيروت ، وسماها : ضوء السقط ، وهو خطأ ينبغي أن يُتنبّه له .

(٥١) الطلّ الطاهريّ : أنشأه لرجل يعرف بأبي طاهر . ذكره ياقوت ، ولم يذكر في الكشف .

(٥٢) ظهير العسديّ : يتصل بالكتاب المعروف بالعسديّ في النحو . ذكره ياقوت وصاحب الكشف والسيوطي .

(٥٣) عبث الوليد : يؤخذ من عبارة ابن خلكان أنه اختصر فيه شعر البحترى وشرحه ، واسم الكتاب لا يدل على ما قال . وقال غيره : إنه يتضمن أغاليط البحترى . وقال ياقوت : إنه يتصل بشعر البحترى ، وكان سبب إنشائه أن بعض الرؤساء أنفذ نسخة ليُقابل بها ، فأثبت ما جرى من الغلط ليعرض ذلك عليه . وهو جزء واحد في عشرين كراسة . أقول : قد وقعت لي نسخة من هذا الكتاب ، فوجدتها كما قال ياقوت ، والخطأ الذي يذكره أبو العلاء تارة يكون من النسخة المرسلة إليه ، وتارة من الناظم نفسه ؛ ولهذا سماه بعبث الوليد تورية باسمه ، لأن البحترى اسمه الوليد . والوليد أيضاً : الصبي ، فكأنه قال : لعب الصبي وخلطه . ورتب فيه الأبيات التي تعرض لها على حروف المعجم باعتبار قوافيها ، وله فيه فوائد وآراء ؛ كقوله في بيت البحترى في وصف فرس :

أخواله للرُشتمين^(١) بفارس وجدوده للثبّعين^(٢) بموكل

(١) رستم : بضم الراء وسكون السين وفتح المثناة الفوقية ، وقد تضم .

(٢) موكل موضع ، ولا نظير له إلا مورق اسم ملك للروم وموزن وموهب وموطلب =

قال : يروى الرُّسْتَمِيْنَ عَلَى الْجَمْعِ وَكَذَلِكَ التَّبَعِيْنَ ، وَيُرْوَى بِالتَّثْنِيَةِ ، وَالْجَمْعُ أَشْبَهُ ؛ لِأَنَّهُ قَالَ أَحْوَالُهُ فَجَمَعَ ، وَكَذَلِكَ قَالَ جُدُودُهُ . فَأَنَّ تَكُونَ الْأَحْوَالِ وَالْجُدُودِ لِلْمُلُوكِ كَثِيرَةٌ أَشْبَهُ مِنْ أَنْ تَكُونَ لِلْمَلِكِيْنَ . انْتَهَى كَلَامُهُ . قُلْتُ : وَقَدْ يُقَالُ أَيْضًا فِي تَرْجِيحِ مَا رَجَّحَهُ أَنْ لَا وَجْهَ لِلتَّخْصِيصِ اثْنَيْنِ مِنْ تَبَاعُثِ الْيَمِينِ بِالذِّكْرِ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ عَنْ اثْنَيْنِ مَخْصُوصَيْنِ مِنْهُنَّ امْتِازًا بِشَهْرَةٍ تَصْرَفُ إِلَيْهِمَا الْأُذْهَانُ ، إِذَا ذُكِرَ التَّبَعَانِ ، وَمَا يُقَالُ فِيهِمَا يُقَالُ فِي الرُّسْتَمِيْنَ ، فَرَوَايَةُ الْجَمْعِ أَرْجَحُ وَأَقْرَبُ إِلَى الصَّوَابِ .

(٥٤) عِظَاتُ السُّورِ : ذَكَرَهُ يَاقُوتٌ ، وَلَمْ يَتَكَلَّمْ عَلَيْهِ .

(٥٥) الْعِظَةُ وَالزَّهْدُ : لَمْ يَذْكَرْهُ يَاقُوتٌ ، وَذَكَرَهُ صَاحِبُ الْكَشْفِ فِي حَرْفِ الْكَافِ فِي الْكُتُبِ ، وَقَالَ : مِائَةٌ وَعِشْرُونَ كِرَاسَةً .

(٥٦) عَوْنُ الْجُمَلِ : قَالَ يَاقُوتٌ : يَتَّصِلُ بِكِتَابِ الزَّجَّاجِيِّ ، عَمَلُهُ لِأَبِي الْفَتْحِ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي هَاشِمٍ ، وَهُوَ آخِرُ شَيْءٍ أَمْلَأَهُ ، وَفِي كَشْفِ الظُّنُونِ أَنَّهُ شَرَحَ لِشَوَاهِدِ جُمَلِ الزَّجَّاجِيِّ لَمْ يَتِمَّ ، وَكَذَلِكَ فِي بَغِيَةِ الْوَعَاةِ لِلْسِّيُوطِيِّ .

(٥٧) الْفُصُولُ : لَمْ يَذْكَرْهُ يَاقُوتٌ ، وَذَكَرَهُ صَاحِبُ الْكَشْفِ فَقَالَ : إِنَّهُ غَيْرُ الْفُصُولِ وَالغَايَاتِ ، وَهُوَ أَرْبَعَانَةٌ كِرَاسَةً .

(٥٨) الْفُصُولُ وَالغَايَاتُ : هُوَ الْكِتَابُ الَّذِي زَعَمَ شَانِئُوهُ أَنَّهُ عَارِضٌ بِهِ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ ، وَسَمَّاهُ الْفُصُولَ وَالغَايَاتِ فِي مَعَارِضَةِ السُّورِ وَالْآيَاتِ ، وَمَنْشُوعِ الْقَوْلِ فِي هَذَا الزَّعْمِ عِنْدَ الْكَلَامِ عَلَى مَعْتَقَدِهِ . وَلَيْسَ فِي هَذَا الْكِتَابِ إِلَّا عِظَاتٌ وَنِصَائِحٌ ، وَالْمُرَادُ بِالغَايَاتِ الْقَوَافِي ؛ لِأَنَّ الْقَافِيَةَ غَايَةَ الْبَيْتِ أَيْ مَنْتَهَاهُ ، وَهُوَ

= وَمُوَحَّدٌ ، وَالْقِيَاسُ فِيهَا كَانَتْ قَاوُءُ حَرْفٍ عِلَّةٌ أَنْ يَكُونَ الْمَفْعَلُ مِنْهُ مَكْسُورَ الْعَيْنِ ، مِثْلُ مَوْعِدٍ وَمُورِدٍ ، وَلَكِنْ جَاءَتْ هَذِهِ شَاذَةً .

موضوع على حروف المعجم ما خلا الألف ؛ لأن فواصله مبنية على أن يكون ما قبل الحرف المعتمد فيها ألف ، ومن المحال أن يجمع بين ألفين . ولكن تجيء همزة وقبلها ألف ، مثل العطاء والكساء ، وكذلك الشراب والسراب في الباء ، ثم على هذا الترتيب ، وليست حروفه المبنى عليها مستوية الإعراب ، بل تجيء مختلفة ، وفيها ما يجيء على نسق واحد . وقيل : إنه بدأ فيه قبل رحلته إلى بغداد وأتمه بعد عودته إلى المعرة ، ومقداره مائة كراسة . ذكره ياقوت وصاحب الكشف . ويتعلق بهذا الكتاب : إقليد الغايات ، والسادن ، وقد مر ذكرهما . (٥٩) فضائل أمير المؤمنين على بن أبي طالب ، كرم الله وجهه . ضمنه بعض فضائله . ذكره ياقوت فقط .

(٦٠) قاضى الحق : يتصل بكتاب الكافي في النحو لأبي جعفر النحاس المتوفى سنة ٣٣٨ . ذكر في ياقوت والكشف .

(٦١) القائف : ذكره صاحب الكشف في حرف الكاف في الكتب ، وسقط من نسخة ياقوت المطبوعة ، إلا أن في كلامه على كتابه المسمى بمنار القائف دلالة على أن له كتاباً بهذا الاسم .

(٦٢) اللامع العزيزى ، في شرح شعر المتنبي ، صنّفه للأمير عزيز الدولة ابن تاج الأمراء أبي الدوام ثابت بن ثمال ، مقداره مائة وعشرون كراسة . ذكره ياقوت وصاحب الكشف وابن خلكان وغيرهم ، ومنه نسخة بخزانة لاله لى بالقسطنطينية رقمها (١٨٢٥) .

(٦٣) لزوم ما لا يلزم : هو ديوان كبير مرتب على حروف المعجم ، يذكر كل حرف بوجوه الأربعة : الضمة والفتحة والكسرة والسكون . ومعنى لزوم ما لا يلزم أنه يلتزم قبل الروى حرفاً إذا غير لم يكن محلاً بالنظم . قال في خطبته :

إنه ذكر فيه ما هو تمجيد لله الذي شرف عن التمجيد ، أو تذكير للناسين ،
وتنبية للغافلين ، أو تحذير من الدنيا ؛ فإن جاوز المشترط ، فإن الذي جاوز إليه
قول عمرى من المين . وهو أحد كتبه التي تكلموا فيها ، وسنفضل القول فيه
عند الكلام على معتقده وشعره . طبع بالهند سنة ١٣٠٣ وبمصر سنة ١٨٩١
— ١٨٩٥ ميلادية . وكان الأديب الفاضل الشيخ أحمد الفحماوى النابلسى ،
نزىل مصر رحمه الله تعالى ، مشتهرا بكتابة نسخ من هذا الكتاب ،
يتحرى فيها الصحة ، ويطرزها بالحواشى المفيدة ، ثم يبيع النسخة بعشرين
ديناراً مصرياً ، فيتنافس فى اقتنائها أعيان مصر وسراتها ، وعندى منها
نسختان . ووقعت لى نسخة مخطوطة من مختصره ، اسمه : مختار لزوم ما لا يلزم ،
تنقص أوراقا من أولها ، ويبتدىء ما فيها من أثناء قافية الباء المضمومة ، ولذهاب
أولها لم أقف على اسم مؤلفها . ولأبى العلاء شرح عليه سماه : راحة اللزوم ، وله
أيضاً : زجر النابح ، وبحر الزجر ، والراحلة . وكلها تتعلق باللزوميات ،
وقد مضى ذكرها .

- (٦٤) مبهج الأسرار : لم يذكره ياقوت ، وقال صاحب كشف الظنون :
لأبى العلاء ، ولم يقل المعرى ، واسم الكتاب يدل على أنه لغيره .
- (٦٥) مثقال النظم : فى العروض . ذكره ياقوت والسيوطى فى بغية الوعاة .
- (٦٦) مجد الأنصار ، فى القوافى . ذكره ياقوت .
- (٦٧) المختصر الفتحة : يتصل بكتاب محمد بن سعدان ، صنّفه لرجل يكنى
أبا الفتح محمد بن على بن أبى هاشم ، وكان أبو هذا الرجل تولى إثبات ما ألفه
أبو العلاء من جميع كتبه ، فألزمه بذلك حقوقاً جمة ، وأيادى كثيرة . كذا
ذكر ياقوت .

(٦٨) معجز أحمد : لم يذكره صاحب الكشف ، ويذهب بعضهم إلى أنه هو اللامع العزيزي في شرح شعر المتنبي . ويستفاد من عبارة ابن خلكان أنه غيره ، وأن أبا العلاء اختصر ديوان المتنبي ، وتكلم على غريبه ، وذكر سرقاته وما أخذ عليه في هذا الكتاب . ومن فوائده التي ذكرها فيه ، ونقلها عنه أصحاب البديع ، استنباطه لنوع من البديع سماه « الطاعة والعصيان » عند كلامه على قول المتنبي :

يردّ يداً عن ثوبها وهو قادر ويعصى الهوى في طيفها وهو راقد
فزعم أنه أراد أن يقول وهو مستيقظ ليطابق بينه وبين راقد ، ولما عصاه
الوزن عدل عنه إلى قادر ، وفيه معنى مستيقظ وزيادة ، فأطاعه التجنيس المقلوب
بين قادر وراقد ، وعصته المطابقة بين راقد ومستيقظ . ورد عليه زكي الدين بن
أبي الإصبع بأن ليس في البيت شيء من ذلك ، لإمكان أن يقول وهو ساهر بدل
قادر . انتهى . وجلّ من أتى بهذا النوع من أصحاب البديعيات ، لم تسلم أبياتهم
من مثل هذا النقد .

(٦٩) ملق السبيل : مختصر فيه نظم ونثر ، ذكره ياقوت وصاحب الكشف ،
ووقعت لى نسخة منه ، فوجدته في المواضع مرتباً على حروف المعجم ، يذكر في
كل حرف فقرات من النثر ، ثم يتبعها بأبيات من القافية ؛ كقوله في حرف الحاء :
إن ابن آدم شحيح ، سوف يمرض من القوم صحيح ، يعصف بعقله الريح ؛ إن
ذلك هو التبريح .

يأبها المسك الشحيح	سيمرض السالم الصحيح
ما لك لم تنتفع بعقل	هل عصفت بالعقول ريح
إن شيد القصر في سرور	فبعده يحفر الضريح

وَيَطْرَحُ الْمَهْمَ بِالْمُنَايَا مَنْ جَسَمُهُ فِي الْهَوَى طَرِيحٌ

(٧٠) منار القائف : في تفسير ماجاء من اللغز والقريب في كتابه القائف ،

مقداره عشر كراريس . ذكره ياقوت .

(٧١) المواعظ الست : ذكره ياقوت وصاحب الكشف ، ومعنى هذا

الاسم أن الفصل الأول منه في خطاب رجل ، والثاني في خطاب اثنين ، والثالث

في خطاب جماعة ، والرابع في خطاب امرأة ، والخامس في خطاب امرأتين ،

والسادس في خطاب نسوة . في خمس عشرة كرامة .

(٧٢) نشر شواهد الجمهرة : لم يذكر في الكشف ، وقال ياقوت : إنه في

ثلاثة أجزاء ، ولم يتم .

(٧٣) نظم السور : ستة كراريس ، ذكره صاحب الكشف ، وجاء في

نسخة ياقوت : تظم السور ، بالمشناة الفوقية ، ولعله تحريف .

(٧٤) وقعة الواعظ : هكذا في نسخة ياقوت ، وقال مصححه : لعله برقة

الواعظ ، ولم يذكره صاحب كشف الظنون .

وله سوى ذلك كتب في العروض والشعر بدأبها ولم تتم . ورأيت بعض

العصريين ينسب إليه كتابا اسمه الفصوص ، ويزعم أنه سقط منه في الدجلة ،

وهو يحمله إلى أحد الأمراء ببغداد ، فقال فيه بعض الشعراء :

قد غاص في النهر كتاب الفصوص وهكذا كل ثقل يغوص

فأجابه أبو العلاء بقوله :

عاد إلى معدنه إنما توجد في قعر البحار الفصوص

والصواب أن هذا الكتاب لأبي العلاء صاعد اللغوي البغدادي ، أحد

الراجلين إلى الأندلس ، وبها ألقه ، ووقعت له هذه القصة . وسببها أنه استأذن من المنصور بن أبي عامر في إملاء كتاب بجامع مدينة الزهراء ، يفوق أمالي أبي علي القالي التي أملاها بقرطبة في دولة عبد الرحمن وابنه الحكم ، واشترط أن لا يورد فيه خبراً أورده القالي . فأذن له في ذلك ، فأملى كتاب الفصوص ، ولما أكمله تتبعه أدياء الوقت ، فلم تمرّ فيه كلمة صحيحة عندهم ، ولا خبر ثبت لديهم . وكان صاعد متهماً بالكذب جريئاً عليه ، فأراد المنصور امتحانه ، فعمد إلى كراريس بيض وأمر أن تجلد وتزال جدتها حتى يتوهم فيها القدم ، وترجم عليها كتاب النكت تأليف أبي العوث الصنعاني ، فترامى إليه صاعد حين رآه ، وجعل يقبله ، ويقول : إني والله ، قرأته بالبلد الفلاني على الشيخ أبي فلان ، فأخذ المنصور من يده خوفاً من أن يفتحه ، وقال : إن كنت قد قرأته كما تزعم ، فعلام يحتوي ؟ فقال : وأبيك لقد بعد عهدي به ، ولا أحفظ الآن منه شيئاً ، ولكنه يحتوي على لغة منشورة لا يشوبها شعر ولا خبر ، فقال له المنصور : أبعث الله مثلك ، فما رأيت أ كذب منك . وأمر بإخراجه وإلقاء كتاب الفصوص في النهر ، فقال فيه بعض الشعراء ، وأجابه صاعد بما تقدم .

قال ابن بسام : وما أظن أحداً يجترئ على مثل هذا ، وإنما صاعد اشترط ألا يأتي إلا بالغريب غير المشهور ، وأعانهم على نفسه بما كان يتنفق به من الكذب . انتهى .

ومن جراته على الكذب نادرته في الخنفشار ، وذلك أن المنصور سأله يوماً عنه ، فقال على البديهة : هو حشيشة يعقد بها اللبن بيادية الأعراب ، وفي ذلك يقول شاعرهم :

لقد عقدت محبتها بقلبي كما عقد الحليب الخنفشار

ورواية هذه اللفظة بالخاء المعجمة والفاء هو المشهور في كتب الأدب والتاريخ ، وقد رويت بالباء الموحدة في نسختي نفع الطيب المطبوعتين بمصر ، ووردت في التي طبعت بأوروبا بالخاء المهملة والباء الموحدة ، ورواية البيت فيها :

لقد عُقدت محبتها بقلبي كما عُقد الحليبُ بمجنِّبشار

إلا أن المصحح ذكر بالحاشية ورودها في بعض النسخ بالخاء المعجمة والباء الموحدة ؛ وفي أخرى بالخاء أيضا والفاء ، وهو الصواب على ما ترجح عندي ، وما عداه محرف عنه . وسببه أن صاحب نفع الطيب تلمس أني كما هو معلوم ، وقاعدة المغاربة في الكتابة تقط الفاء بنقطة من تحت ، فيظهر أن نسخة الأصل كتبت بخط مغربي ، وطمس الكاتب رأس الفاء ، فظهرت بصورة الباء لمكان النقطة التحتية ، وتصحيف الخاء المعجمة بالحاء المهملة قريب . وإتارجحت هذا الوجه ؛ لاشتهاره في سائر الكتب كما ذكرت آنفا . ويجوز أن يكون الصواب في أحد الوجهين الآخرين ، إلا أن مثل هذا لا يثبت إلا بنص ، ولم أقف على نص فيه . والخطب أسهل من أن نطيل فيه الكلام ؛ لأن الظاهر من مفاد القصة أن الكلمة مخترعة . والله أعلم .

فصل في ثروته وزهده

قد علمت مما تقدم أن أبا العلاء كان من بيت ثراء وغنى ، والمتبادر في مثله أن يكون مثريا كأهله ، ولكنك لو تتبعت بقية أخباره ، وأنعمت النظر في أقواله عن نفسه ، سواء كانت نثراً أو شعراً ، ظهر لك أنه كان على العكس من ذلك . وحسبك تصريحه في إحدى رسائله إلى داعي الدعاة ، بأن الذي له في السنة تيف وعشرون ديناراً يشاركه خادمه في معظمها . وسيمر بك في هذا الفصل شيء من أشعاره المنبئة عن إملاقه وحاجته . والحقيقة المزيلة للبس أنه كان على شيء من الثروة نكب فيه قبل قفوله من بغداد ، فعاش بعد ذلك في كفاف ، بدليل قوله :

أثارني عنكم أمران والدةٌ لم ألقها وثرأء عاد مسفوتاً^(١)

أحيأها الله عصر البين ثم قضى قبل الإياب إلى الذخرين أن موتاً

يعنى : أحيأ الله والدتي ومالي وأنا بعيد عنهما ، فلما أزمعت الإياب قضى على

الوالدة بالموت ، وعلى المال بالضياع .

على أنه كان على فقره قنوعاً عيوقاً كبير النفس ، يضرب في علو الهمة بسهم وافر ، لم يسمع أنه استباح أحداً ، أو مدح طمعاً في نوال ، ومن قوله في خطبة سقط الزند : « ولم أطرق مسامع الرؤساء بالنشيد ، ولا مدحت طلباً للشواب ، وإنما كان ذلك على معنى الرياضة ، وامتحان السوس^(٢) ، فالحمد لله الذي ستر بفضة^(٣) من

(١) السفوت : القليل البركة .

(٢) السوس : بالضم الطبيعية .

(٣) الفضة ، بالضم : البلغة من العيش .

قَوَامِ العيش ، ورزق شعبة من القناعة أوفت على جزيل الوفر . ومن غرر أقواله
في ذلك :

وإني تيمت العراق لغير ما تيممه غَيْلَانُ عند بلال
فأصبحت محسوداً بفضلٍ وحده على بعد أنصاري وقلّة مالي
غَيْلَانُ هو ذو الرُّمّة ، كان قصد بلال بن أبي بُرْدَةَ بن أبي موسى الأشعري
مستميحاً ، وفيه يقول :

سمعتُ : الناسُ ينتجعون غيثا فقلت لصَيِّدِحَ : انتجعي بلالا
وصَيِّدِحَ اسم ناقته ، والرواية في الناس بالرفع على الحكاية ؛ لأنه سمع من
يقول : الناسُ ينتجعون غيثا ، فحكى ماسمع ، جزم بذلك المبرد ، وعدّ الحريري
النصبَ من الأوهام ، وذهب غيرها إلى أنه يجوز .

وقال أبو العلاء يصف حاله ببغداد :

تمنيت أن الخمر حلت لنشوة تُجهلني كيف اطمانت بي الحال
فأذهل أني بالعراق على شفى رزى الأمانى لا أنيس ولا مال
مقلّ من الأهلين يُسرّ وأسرّة كفى حزننا بين مُشيت وإقلال
وكم ماجد في سيفٍ دجلة لم أشيم له بارقا والمرء كالمرزف هطال^(١)
من الغرّ ترّالكُ المواجر مُعرّضُ عن الجهل قذاف الجواهر مفضّال
سيطلبني رزق الذي لو طلبته لما زاد ، والدنيا حظوظ وإقبال
وقال أيضاً :

رحلتُ لم آتِ قرّواشاً أزاوله ولا المهذبَ أبغى النَّيْلِ تقويتا
والموت أحسن بالنفس التي ألفت عزّ القناعة عن أن تسأل القوتنا

(١) السيف ، بالكسر : الساحل .

قرواش كان والياً ببغداد ، والمهذب وزيره . وروى أن المستنصر الفاطمي خليفة مصر بذل له ما في بيت مال المعرة من الحلال ، فلم يقبل منه شيئاً ، وقال :

لا أطلب الأرزاق والسمولى يفيض على رزقى
إن أعطت بعض القوت أعلم أن ذلك فوق حقي

ويعجبني قوله في لزوم ما لا يلزم :

وكنتم الدنيا كعاب أينا رجي لها صلة فذاك يسار
وإذا الفتى لحظ الزمان بعينه هان الشقاء عليه والإعسار
وقوله :

نواب ألت في النفوس جرائحا عصى كل آس في البرية سبرها
لي القوت فليغمر سر نديب حظها من الدرر أو يكثر بغانة تبرها

سرنديب جزيرة قرب الهند ، فيها معاوض للؤلؤ ، وتسمى اليوم سيلان ، وغانة مدينة كبيرة في جنوبي بلاد المغرب ، هي مدخل بلاد التبركا في ياقوت ، وتطلق اليوم على أرض واسعة في غربي قارة إفريقيا ، تقاسمها الإفرنج بينهم ، واسمها في لغتهم (Guinée) جينا بالإمالة ، أو : غينا ، والأصل فيه غانة ؛ كما قدمنا ، والرجوع إليه أولى . ويطلق الإفرنج هذا الاسم أيضا على أول دينار إنجليزي ضرب من الذهب المستخرج من هذه الجهة ، وأبطل الإنجليز التعامل به من سنة ١٨١٧ ميلادية ، واستعاضوا عنه بدينارهم المسمى (Souverain) سوفران ، ومن هذا تعرف سبب تسمية المصريين كل دينار بالجنيه ، وكان الصواب أن يسموه بالغانى ، إن أرادوا النسبة إلى تلك الجهة ، وإلا فالرجوع إلى الدينار أولى . وكان شأن أبي العلاء في الزهد والتعشف والإعراض عن الدنيا شأنا عجبا ، ولا يذهبن بك الظن فتتوهم أن للفقر مدخلا في زهده ، فإن من تبدل له الخزان ،

وتُعَرِّضُ عليه الصلوات ، لا تستعصى عليه غاية من الغايات ، ولكنه نظر إلى هذا المتاع الزائل نظر مَنْ لم يُلهِه زخرفه عن استطلاع حقيقته ، فصدَّ عنه وزهد فيه جملةً ، وأخذ نفسه بالرياضة والحشونة ، والإعراض عن العرض الغاني ؛ فكان لبامه القطن ، وفراشه اللَّبَدُ ، وحصيرُه برديةً ، وطعامه الفول والعدس ، وحلاوته التين ، وفيه يقول :

يقنعني بُلْسُنٌ يُمَارِسُ لِي فَإِنِ أَتَنَى حَلَاوَةَ فَبَلَسْ^(١)
فَلَسٌ مَا اخْتَرْتَ إِنِّ أَرْوَحُ مِنْ يَسَارِ قَارُونَ عَفَّةً وَفَلَسْ^(٢)

وسنورد مختار شعره في الزهد ، متى وصلنا إلى الكلام على منظومه ، كما أننا سنشبع القول في سبب تجافيه عن أكل الحيوان ، عند الكلام على معتقده .

وكان رحمه الله ، على عوزه ورقة حاله ، بذولاً لما عنده ، غير مانع معروفاً عن مستحق ، يتكلف في ذلك ما استطاع . بَلَغَهُ مَرَّةً أَنْ شَاعِرًا يَلْقَبُ بِصَرِيحِ الْبَيْتِ سَاءَتْ بِهِ الْحَالُ ، فَأَنْقَذَ إِلَيْهِ قَدْرًا مِنَ الدَّرَاهِمِ ، وَأَتْبَعَهَا بِقَصِيدَةٍ يَقُولُ فِيهَا :

قد استحييت منك فلا تكليني إلى شيء سوى عذر جميل
وقد أنفذت ماحق عليهِ قبيح الهجو أو شتم الرسول
وذاك ، على انفرادك ، قوت يوم إذا أنفقت إنفاق البخيل
فكيف وأنت علوى السجايا فليس إلى اقتصادك من سبيل
إلى أن يقول :

فإن يك ما بعثتُ به قليلاً فلي حال أقل من القليل

وحدث للقاضي أبي محمد عبد الوهاب بن علي بن نصر الفقيه المالكي المشهور

(١) البلسن بالضم : العدس ، والبلس بالتحريك : التين .

(٢) اللس : الأكل .

ضيق وشدة ، وهو ببغداد ، فلم ير بُدًّا من الرحيل عنها ، وخرج لتشييعه يوم
فَصَلَ جمع من أكابرها ، وطوائف كثيرة من أهلها ، وما فيهم إلا متوجع لفراره ،
أو آسف على فوات الاستفادة من علمه ، فقال لهم عند الوداع : لو وجدت بين
ظَهْرَانَيْكُمْ رغيفين كل غداة وعشيّة ما عدلت عن بلدكم . فلم تحرك مقالته واحداً
منهم ، يتكفل له بما طلب ؛ فسار عنهم قاصداً مصر ، واجتاز بعمرة النعمان ، وبها
يومئذ أبو العلاء ، فأضافه واحتفى به ، وفيه يقول :

والمالكيّ ابن نصر زار في سفر بلادنا فحمدنا النأي والسفرا
إذا تفقه أحياناً مالكا جدلاً وينشرُ الملكَ الضليلَ إن شعراً^(١)
ثم حباه عند رحيله بثلاثين درهما ، وخاطبه معتذراً بقوله :

أَبْسُطْ عذري منم أم يخصني بما هو حظي من أليم عتاب
قبول الهدايا سنّةٌ مستحبةٌ إذا هي لم تسلك طريق تحاب
فياليتني أهديت خمسين حجّةً مضت لي فيها صحتي وشبابي
وقلّت له فآرك ثلاثين أسوداً متى ما تكشّف تأنف غير لباب
إذا أسكت المحتجّ كلّ مناظر فعند ابن نصر نجدة بجواب
وما أنا إلا قطرة من سحابة ولو أنني صنّفت ألف كتاب
وبين يديه كفر طاب وإنسها يعيش لفقد الماء عيش ضباب
لعل الذي أنفذت يكفيه ليلة لإسباغ طهر حان أو لشراب

يقول : لعل هذه الدراهم القليلة ، وإن كانت سوداء غير خالصة الفضة ، تكفي
الشيخ لأن يشتري بها قليلاً من الماء لظهره أو لشرابه ؛ فإنه معرج على كفر
طاب ، وهي قليلة الماء ، وأهلها يعيشون بها عيش الضباب ، وإنما خص الضباب

(١) الملك الضليل : امرؤ القيس .

بالذكر ؛ لأنها تصير على العطش . وبعض المحققين من أهل عصرنا يرى أن
كفر طاب هي البلدة المسماة الآن بإذاب ، وهي قصبه قضاء باسمها ، من لواء حلب .
ولم تزل قليلة الماء . وفيها يقول أبو العلاء في لزومياته :

أرى كفر طاب أعجز الماء حفرها وبالس أغناها الفرات عن الحفر^(١)
كذلك مجرى الرزق ، وادٍ بلا ندَى ووادٍ به فيض وآخر ذو جفر
ولما وصل القاضي عبد الوهاب المذكور إلى مصر ، أقيمت عليه الدنيا ،
وانهالت عليه صلوات الأمراء ، ولكنه لم يتمتع بشيء منها ، بل مات عقب وصوله
من أكلة اشتهاها ، وسمومه يقول وهو يتقلب ويتململ : لا إله إلا الله ، إذا عشنا
متنا . وهو القائل في بغداد :

بغداد دار لأهل المال طيبة ولمفائيس دار الضنك والضيق
ظلت حيران أمشى في أزقتها كأنني مصحف في بيت زنديق

(١) بالس كصاحب : بلدة بشط الفرات .

فصل في بقية أخباره

لما دخل أبو العلاء بغداد أقبل عليه علماءؤها وأدباؤها ، معجبين بفطنته ، وسعة علمه . واختص بصحبته جماعة منهم ؛ كأبي القاسم علي بن المحسن القاضي التنوخي ، وكحازن دار العلم ، والشريفين الرضي والمرتضى ابني أبي أحمد الموسوي ، وغيرهم . وكان المرتضى شديد الاختصاص به ، وله معه مباحثات ومداعبات .

رَوِيَ أَنَّهُ حضر مجلسه يوما ، وجرى ذكر المتنبي فتنقصه المرتضى ، وجعل يتبع عيوبه ؛ لبيضه له ، وتعصبه عليه . وكان أبو العلاء على عكسه يتعصب للمتنبي ، ويزعم أنه أشعر المُحدِّثين ، ويفضله على بشار ومن دونه ؛ كأبي نواس وأبي تمام . فقال : لو لم يكن المتنبي إلا قوله : (لكِ يا منازل في القلوب منازل) لكفاه فضلا . فغضب المرتضى ، وأمر به فأخرج من مجلسه ، ثم التفت إلى مَنْ بمحضرتة ، وقال لهم : أتدرون أي شيء أراد الأعمى بذكر هذه القصيدة ، مع أن لأبي الطيب ما هو أجود منها ؟ فقالوا : النقيب الصيد أعرف ، فقال : أراد قوله في هذه القصيدة :

وإذا أتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني كامل

قلت : ومن التلميح المستعذب بهذا البيت ، ما وقع للفتح بن خاقان مع ابن الصائغ ، وقد ذكره بسوء في كتابه قلائد العقيان ، فر عليه ابن الصائغ يوما وهو في جماعة ، فضرب بيده على كتفه ، وقال : إنها شهادة يا فتاح . ثم مضى في سبيله ، فتغير لون الفتح ، وقال : والله ما بلغت بوصفي له في كتابي عشرَ ما بلغ مني بهذه الكلمة !

ويشبه قصة المعري مع المرتضى ما وقع للخالدين مع سيف الدولة ، لما عتابه في تفضيله المتنبي ، وقال : ليختر الأمير ما شاء من قصائده ، حتى ننظم ما هو أجود منها ، فاقترح عليهما أن يعارضا قوله :

لَعَيْنَيْكَ مَا يَلْقَى الْفُؤَادَ وَمَا لِقَى وللحب ما لم يَبْقَ مَنَى وَمَا بَقِيَ
فلما كررا النظر فيها لم يجداها من غير قصائده ، ثم فطنا إلى أن سيف الدولة أراد بهما قوله فيها :

إذا شاء أن يلهو بلحية أحق أراه غبارى ثم قال له الحق
فأحجبا عن المعارضة ولم يعاوداه . وفي رواية أن هذه القصة وقعت للسري الرِّفَاءَ لا الخالدين . وحكى بعضهم ، قال : خرجت على سبيل الفرجة ، فعدت على الجسر ببغداد ، فأقبلت امرأة من جانب الرِّصَافَةِ تريد الجانب الغربي ، فاستقبلها شاب فقال لها : رحم الله على بن الجهم ، فقالت في الحال : ورحم الله أبا العلاء المعري . ولم يقفا ، ومرّا مشرقاً ومغرباً ، فتبعت المرأة وقلت لها : أخبريني عافاك الله عما قال لك ، وعما أجبت به ، فقالت : نعم ، رحم الله على بن الجهم ، أراد قوله :

عيون المها بين الرِّصَافَةِ والجسر جلبن الهوى من حيث أدرى ولا أدرى
وأردت بترحمي على أبي العلاء قوله :

فيادارها بالحزن إن مزارها قريب ولكن دون ذلك أهوال
وروي أن أحد الشرفاء سقط منه خاتم في الحرم ، فقال له أحد بني عمه :
لِمَ لَمْ تَقِفْ عَلَى طَلَبِ هَذَا الْخَاتَمِ الثَّمِينِ ؟ فقال له : أَلَسْتُ مِنْ أَبْنَاءِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ؟
أراد الأول قول المتنبي :

بَلِيَّتِ بَلَى الْأَطْلَالِ إِنْ لَمْ أَقِفْ بِهَا وَقُوفَ شَجِيحِ ضَاعِ فِي التَّرْبِ خَاتَمُهُ

وأراد الثاني قوله من قصيدة أخرى :

كذا الفاطميون الندى في أكفهم أعزُّ أمحاء من خطوط الرواجب^(١)
يريد : أن الندى ملازم لأكفهم ، كما أن خطوط الرواجب ملازمة لها .
وفي البيت الأول نادرة لأبي العلاء ، وذلك أنه بلغ من ولوعه بالمتنبي أنه
كان إذا ذكر الشعراء يقول : قال أبو نواس كذا ، قال البحتري ، قال أبو تمام ،
فإذا أراد المتنبي قال : قال الشاعر . فقيل له يوماً : لقد أسرفت في وصفه ، فقال :
أليس هو القائل :

بليت بلى الأطلال إن لم أقف بها وقوف شحيح ضاع في التراب خاتمه
كم يقف الشحيح على خاتمه ؟ يقف عليه أربعين يوماً . فقيل له : ومن أين
علمت ذلك ؟ قال : سليمان بن داود عليهما السلام وقف على طلب الخاتم أربعين
يوماً ، فقيل له : ومن أين علمت أنه بخيل ؟ قال : من قوله تعالى : وهب لي ملكاً
لا ينبغي لأحد من بعدي ، وما كان عليه أن يهب الله لعباده أضعاف ملكه !
ولما بلغ أبا العلاء وفاة أبي أحمد الطاهر أبي الشريفين الرضى والمرضى
سنة ٤٠٣ ، رثاه وهو بالمعرة بقصيدة فائبة طويلة ، أجاد فيها كل الإجابة ،
وأنفذها إليهما ، مطلعها :

أودى فليت الحادثات كفاف مال المسيف وعنبر المستاف
ومن غريب قوله فيها يخاطب الغراب :
لا خاب سعيك من خفاف أسحمر كسحيم الأسدى أو كخفاف
من شاعر اللبين قال قصيدة يرثى الشريف على زوى القاف
بنيت على الإبطاء سالمة من الإقواء والإكفاء والإصراف

(١) الرواجب : واحدتها راجبة ، وهي مفاصل الأصابع .

الخُفَّافُ : الخفيف ، وسُحَّيْمٌ : عبد بنى الحَسَّاحَس ، كان أسود ؛ وأراد
بِخُفَّافٍ : خُفَّافِ بْنِ نُدْبَةَ^(١) أحد غرمان العرب وشعرائها ، يعنى كأن هذا الغراب
شاعر أسود كهذين الشاعرين ، يعنى لنا الشريف بنعييه ، وريثيه بقصيدة قافية ؛
لأنه يقول فى نعييه : غاق غاق . وهذه القصيدة بنيت على الإيطاء ؛ لأنه يردد هذه
الكلمة فى قوافيها ، إلا أنها سالمة من الإقواء ، وهو الاختلاف بين القوافى بالرفع
والجر ؛ ومن الإكفاء ، وهو المخالفة بينها بالحروف ؛ ومن الإصراف ، وهو
الإقواء بالنصب .

ومن صحب أبا العلاء وأخذ عنه وهو ببغداد القاضى أبو القاسم على بن المحسن
التنوخى المتقدم ذكره ، وكانت بينهما رابطة اتحاد . وحمل إليه مرة جزءاً من
أشعار تنوخ فى الجاهلية ، مما كان جمعه والده أبو على المحسن ، فلما تعجل
أبو العلاء الرحيل عن بغداد تركه عند أبى أحمد عبد السلام ، وسأله رده إلى
أبى القاسم ، وسار عن بغداد ، فخشى أن يكون أغفله ، فكتب يخاطب أبا القاسم
بقصيدة ضمنها أغراضاً ، يقول فيها :

أهدى السلام إلى عبد السلام فما يزال قلبى إليه الدهر ملفوتا
سألته قبل يوم السير مبعثه^(٢) إليك ديوان تيم اللات ماليتنا^(٢)
هذا لتعلم أى ما نهضت إلى قضاء حج فأغفلت المواقيتا

وروى ابن خلكان وابن الوردى فى تاريخيهما ، نقلا عن كتاب للحافظ
أبى طاهر السلتى ، وضعه فى أخبار أبى العلاء ، قال فيه مسنداً عن القاضى أبى الطيب
الطبرى : كتبت إلى أبى العلاء الممرى حين وافى بغداد ، وقد كان نزل فى
سويقته غالب :

(١) ندبة بفتح أوله أو ضمه : أم خفاف ، وهو أحد من نسب إلى أمه من الشعراء .

(٢) أى ما نفس .

وما ذات دَرٍّ لا يَحِلُّ لِحَالِبٍ تَنَاوَلَهُ وَاللَّحْمَ مِنْهَا مُحَلَّلٌ
لِمَنْ شَاءَ فِي الْحَالِئِينَ حَيًّا وَمَيِّتًا وَمَنْ رَامَ شَرْبَ الدَّرِّ فَهُوَ مُضَلَّلٌ
إِذَا طَعَنَتْ فِي السِّنِّ فَاللَّحْمُ طَيِّبٌ وَأَاكِلُهُ عِنْدَ الْجَمِيعِ مُعَقَّلٌ
وَخِرْفَانِهَا لِلْأَكْلِ فِيهَا كِرَازَةٌ (١) فَمَا لِحَصِيفِ الرَّأْيِ فِيهِنَّ مَأْكَلٌ
وَمَا يَجْتَنِي مَعْنَاهُ إِلَّا مَبْرُزٌ عَلِيمٌ بِأَسْرَارِ الْقُلُوبِ مُحَصَّلٌ
فَاجَابَنِي ، وَأَمَلَى عَلَيَّ الرَّسُولُ فِي الْحَالِ :

جوابان عن هذا السؤال كلاهما صوابٌ وبعض القائلين مضلل
فمن ظننه كرمًا فليس بكاذبٍ وَمَنْ ظَنَّهُ نَحْلًا فَلَيْسَ يَجْهَلُ
لحومهما الأعتاب والرطاب الذي هُوَ الْحَلُّ وَالذَّرُّ الرَّحِيقُ الْمُسْتَلْسَلُ
ولكن ثمار النخل وهي غضيضة (٢) تَمْرٌ (٣) وَغَضُّ الْكَرَمِ يُجْنَى وَيُؤْكَلُ
يكلفني القاضي الجليل مسائلا هِيَ النِّجْمُ قَدْرًا بَلْ أَعَزُّ وَأَطْوَلُ
ولو لم أُجِبْ عنها لكنت بجهلها جَدِيرًا وَلَكِنْ مِنْ يَوْذَاكَ مُقْبِلُ
قال القاضي أبو الطيب : فأجبتة عنه ، وقلت :

أثار ضميري من يعز نظيره مِنْ النَّاسِ طَرًّا سَابِغٌ (٤) الْفَضْلُ مَكْمَلُ
ومن قلبه كتب العلوم بأسرها وَخَاطِرُهُ فِي حِدَّةِ النَّارِ مُشْعَلُ
تساوى له سر المعاني وجهرها وَمُعْضَلُهَا بَادٌ لَدَيْهِ مُفَصَّلُ
ولما أثار الحب قاد (٥) منيعه أَسِيرًا بِأَنْوَاعِ الْبَيَافِ يُكَبَّلُ

(١) السكرازة : اليبس والانتعاش .

(٢) رواية ابن الوردي : رطبية .

(٣) سر يسر بالفتح والضم : ضد يحلو .

(٤) رواية ابن الوردي : سابق .

(٥) رواية ابن الوردي : ولما أثار الحب فار معينه .

وقربه من كل فهم بكشفه
وأعجب منه نظمه الدرّ مسرعا
فَيَخْرُجُ من بحر ويسمو مكانه
فَهَنَاءُ الله الكريم بفضله

فأملى أبو العلاء على الرسول مرتجلا :

ألا أيها القاضى الذى بدهانه
فؤادك معمور من العلم أهل
فإن كنت بين الناس غير مُمَوَّلٍ
إذا أنت خاطبت الخصوم مجادلا
كأنك من فى الشافعى مُحَاطِبُ
وكيف يُرَى علم ابن إدريس دارساً
تفضّلت حتى ضاق ذرعى بشكر ما
لأنك فى كنهه الثريا فصاحة
فعدوى فى أنى أجبته واثقاً
وأخطأت فى إنفاذ رقعتك التى
ولكن عدانى أن أروم احتفاظها
ومن حقها أن يصبح المسك عاطرا
فن كان فى أشعاره متمثلا
تجملت الدنيا بأنك فوقها

والقاضى أبو الطيب المذكور كان أديباً ورعاً ، عارفاً بأصول الفقه وفروعه ،

صنف في الأصول ومذهب الشافعي والخلاف والجدل - كتباً كثيرة . وكان يقول الشعر على طريقة الفقهاء ، وولى القضاء بربع الكرخ ببغداد ، ولم يزل عليه إلى أن مات سنة خمسين وأربعمائة ، بعد ما عاش مائة سنة وستين ، لم يخل عقله ، ولا تغير فهمه ، يفتي ويستدرك على الفقهاء الخطأ ، ويقضى ، ويحضر المواكب في دار الخلافة . رحمه الله تعالى .

ومن أخبار أبي العلاء قصته مع أسد الدولة صالح بن مرداس صاحب حلب ، وقبوله شفاعته في أهل معرة النعمان بعد أن كاد يبطش بهم سنة ٤١٧ . والسبب في ذلك أن امرأة صاحبة يوم الجمعة بجامع المعرة ، وذكرت أن صاحب الماخور أراد اغتصابها ، فنفر كل من في الجامع وهدموا الماخور ، وأخذوا خشبه ونهبوه ، وكان الأمير أسد الدولة في نواحي صيدا ، فوصل المعرة ، وخرم بظاهرها ، واعتقل من أعيانها سبعين رجلاً برأى وزيره تادرس بن الحسن الأستاذ ، وأوممه أن في ذلك إقامة للهيبية . فشق على المسلمين هذا الأمر ، حتى دعوا لهؤلاء المعتقلين على منابر آمد ومياريقين . وقطع تادرس عليهم ألف دينار ، ففرغ أهل المعرة إلى أبي العلاء ، وسألوه تلافياً بالأمر بالخروج إلى الأمير ، والتوسط لهم عنده . ففرج من أحد أبواب المدينة ، ويده في يد قائده ، وأبصره صالح ، فرأى شيخاً قصيراً يقوده رجل ، فقال : هذا أبو العلاء ، جيئوني به . فلما مثل بين يديه سلم عليه ، ثم قال : « الأمير أطال الله بقاءه كالتنهار المائع ، قاطظ وسطه وطاب إبراده ، أو كالسيف القاطع ، لان متنه وحسن حداه ، « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » . فقال صالح : « لا تتريب عليكم اليوم ، قد وهبت لك المعرة وأهلها » وأمر بتقويض الخيام ورحل . فرجع أبو العلاء وهو يقول :

نجي المعرة من برّائين صالح رب يعافى كل داء معضل

ما كان لي فيها جناح بعوضة الله ألحفهم جناح تفضل
ورواية اللزوميات في البيت الأول :

نحى المعاشر من برائن صالح ربُّ يُفَرِّجُ كُلَّ أمرٍ مُعْضِلِ
وفيهما أيضاً : البسهم ، بدل : ألحفهم . ولم يعلم أبو العلاء أن المال قد قطع عليهم ،
وإلا كان قد سأل فيه أيضاً . وفي هذه القصة يقول وضمنها لزومياته :

تَعَيَّنْتُ فِي منزلِ برهة سَتِيرَ العيوبِ فقيدَ الحَسَدِ
فلَمَّا مضى العُمُرُ إِلَّا الأَقْلَ وَحُمَّ لروحِي فِرَاقُ الجَسَدِ
بُعِثْتُ شَفِيعاً إِلَى صالح وَذاكِ مِنَ القومِ رَأى فَسَدَ
فِيسمعُ مِنِّي سَجَعَ الحَمامِ وَأسمعُ مِنْهُ زَبِيرَ الأَسَدِ
فَلَا يُعْجِبُنِي هَذَا النِّفَاقُ فَكَمْ نَفَقَتْ مِحْنَةٌ ما كَسَدَ

وصالح هذا هو أسد الدولة أبو علي صالح بن مرداس الكلابي أول ملوك
بنى مرداس بحلب ، كان من عرب البادية ، وكانت له عشيرة وشوكة ، فقصده
مدينة حلب وانتزعها من مرتضى الدولة بن لؤلؤ ، نائب الظاهر بن الحاكم
الفاطمي خليفة مصر ، وتملكها سنة ٤١٧ . ثم جهز الظاهر الجيوش ووجهها إليه ،
وجرت مقتلة انجلت عن قتل صالح سنة ٤٢٠ ، وقيل سنة ٤١٩ .

وهو الذي عناه أبو العلاء بقوله في لزومياته :

أرى حَلْبًا حازها صالح وجمالِ سِنانٍ عَلَيَّ جَلِّقا
وَحَسانُ فِي سَلْفِي طَيِّبٌ يَصرفُ مِنْ عِزِّهِ أُبَلِّقا

وذكر السيوطي في بغية الوعاة في ترجمة نصر بن صدقة القابسي النحوي ،
أنه كان ممن يعانى الأدب ، فقدم مصر وأخذ عن علمائها ، ثم توجه إلى المعرة
فلازم أبا العلاء ، وأخذ عنه ديوانه سقط الزند ، وكتب منه نسخة جيدة ، ورجع

إلى مصر ، فقدمها للحاكم وقرأها عليه ، فأعجبه نظمه ، وأرسل إلى عزيز الدولة الوالى بحلب ، أن يحمله إلى مصر ، فاعتذر فكف عنه . هذا ما ذكره السيوطى . وفى مقدمة رسالة المعرى تسمى بالفلاحية : أن القابسى المذكور لما رجع إلى مصر بنسخته سقط الزند ، أهداها للوزير أبى نصر صدقة بن يوسف الفلاحى ، فأعجب بها ، واستدعى كاتب الديوان ، وأمره أن يكتب إلى عزيز الدولة متولى حلب وأعمالها فى حمل أبى العلاء إلى مصر ، لينبئ له دار علم ، وسمح بخراج معرة النعمان له فى حياته وبعده ، فوصلت الأوامر إلى ديوان الشام بكتب السجل ، فكتب ، وجهز على البريد . فلما وقف عليه عزيز الدولة نهض للوقت ، حتى دخل معرة النعمان ، وقرأ السجل على أبى العلاء ، فقال : أمهلتى حتى أكتب جواب السجل إلى مجلس الوزارة ، فلعل العفو يساخنى بالمقام فى بلدى ؛ إذ لا يمكننى الخروج منه . فأمله الأمير ، فأحضر الكاتب للوقت ، وأملى عليه هذه الرسالة يعتذر فيها عن عدم الرحيل بعهزه عنه . والوزير الفلاحى المذكور وُزِّرَ للمستنصر سنة ٤٣٦ وعزل سنة ٤٣٩ . ولم تسبق له وزارة مدة الحاكم بأمر الله ، حتى يمكن الجمع بين الروايتين . وقد تقدم أن المستنصر بذل لأبى العلاء ما يبىيت مال المعرة من الحلال ، فلم يقبله . فلعل ذلك كان بسعى هذا الوزير ، وفيه ما يرجح الرواية الثانية . إلا أن يكون مراد السيوطى مطلق حاكم بمصر ، لا الحاكم بأمر الله على الخصوص . وكان هذا الوزير فى أول أمره يهودياً ، ثم أسلم . وفيه يقول الحسن بن خاقان الشاعر المصرى :

حجاب وإعجاب وفرط تصلف ومد يد نحو العلاء بتكاف

فلو كان هذا من وراء كفاية عذرتنا ولكن من وراء تخلف

وكان معه أبو سعد التستري اليهودى يدبر الدولة له ، فقال بعض الشعراء :

يهود هذا الزمان قد بلغوا غاية آمالهم وقد ملكوا
العز فيهم والمال عندهم ومنهم المستشار والملك
يا أهل مصر إني نصحت لكم تهودوا قد تهود الفلك

ومن ارتبط مع أبي العلاء برابطة الود ، وجمعه به آصرة الأدب ؛ الوزير
أبو القاسم الحسين بن علي العالم الأديب المشهور بالوزير المغربي ، صاحب مختصر
إصلاح المنطق ، وأدب الخواص ، والمأثور في ملح الخدور ، وكتاب الإيناس ،
والديوان الشعر . وهو الذي كتب له أبو العلاء رسالته السماة بالعنبيح ، ورسائل
أخرى . ولما فرغ من تأليف مختصر إصلاح المنطق لابن السكيت أنفذ إلى أبي
العلاء نسخة منه ، فقرظها برسالة طويلة سماها بالإغريقية ، أثنى عليه فيها ثناء
جماً ، ووصف المختصر ، وبالغ في مدحه . ووقفت في رسائل لأبي العلاء مخطوطة
على كتاب أرسله له هذا الوزير ، يتشوق إليه وإلى أخيه ، ويشتكى من الدهر
وصروفه ، ويسأل الله أن يجمعه بهما ، وضمنه كثيراً من شعره في هذه الأغراض .
ولولا خوف الإطالة لأثبتته هنا .

وكان الوزير المذكور من الدهاة العارفين ، محبا للفتن ، مثيراً للقلقل ، قتل
الحاكم بأمر الله أباه وعمه وأخويه ، فهرب إلى الرملة ، ثم انتقل إلى الحجاز ، وهو
يفسد نيات الولاة على الحاكم حتى أقلقه . ودخل العراق فاتهمه القادر العباسي
بالسعي في إفساد الدولة العباسية ، فلم يزل منتقلا في البلاد حتى مات بميافارقين
سنة ٤١٨ على الأصح . ونقل إلى الكوفة بوصية منه ، ودفن في تربة مجاورة
لمشهد الإمام كرم الله وجهه ؛ وأوصى أن يكتب على قبره :

كنت في سقرّة العواية والجه ل مقيا فخان مني قدوم
تبت من كل مأثم فعمى يُه حى بهذا الحديث ذاك القديم

بعد خمس وأربعين لقد ما طلت إلا أن الغريم كريم
ورثاه أبو العلاء بأبيات أثبتتها في لزومياته ، وهي :

ليس يبقى الضرب^(١) الطويل على الأرض ولا ذو العبالة^(٢) الدرّحاية^(٣)
يا أبا القاسم الوزيرَ ترحلاً تَ وخافقتني نِفَال^(٤) رَحَايَةَ
وتركت الكتب الثمينة لنا س وما رحّت عنهم بِسِحَايَةَ^(٥)
ليتني كنتُ قبل أن تشرب المو تَ أصيلاً شربته بضُحَايَةَ
إِن نَحَتَكَ المنونُ قبلي ، فإني مُنْتَحَاها وإنها مُنْتَحَايَةَ
أُمُّ دَفْرُ تقول بمدك للذا ثِق لا طعم لي فأين فَحَايَةَ^(٦)
إِن يَخُطُّ الذنب اليسير حفيظاً لَكَ فكم من فضيلة مَحَايَةَ

وكان ابن القارح صاحب الرسالة المشهورة للمعري يؤدب الوزير المغربي في
صباه ، ثم صار يذمه ويعدد معايبه ، حتى قال في هجوه :

لُقِّبْتَ بِالْكَامِلِ سَتْرًا عَلَى نَقْصِكَ كَالْبَانِي عَلَى الْخُصِّ
فَصَرْتَ كَالْكَنْفِ إِذَا شَيْدَتْ يُبَيِّضُ أَعْلَاهُنَّ بِالْحِصِّ
يَا عُرَّةَ الدُّنْيَا بِلَا غُرَّةٍ وَيَا طُوَيْسَ^(٦) الشُّؤْمِ وَالْحَرْصِ
قَتَلْتَ أَهْلِيكَ وَأَنْهَبْتَ يَدَيْ تِ اللَّهِ بِالْمَوْصَلِ تَسْتَعْصِي

(١) الضرب : الحقيف اللحم .

(٢) ذو العبالة : الغليظ ، والدرحاية : القصير .

(٣) النِفَال بالكسر : الجلد الذي يوضع تحت الرمي .

(٤) سحاية القرطاس : ما سحى منه ، أى أخذ .

(٥) الفحا ويكسر : البزر : ونحو الفدر : كثير أبازيه .

(٦) طويس : أول من غنى في الإسلام يضرب به المثل في الشؤم ؛ لأنه ولد ليلة مات

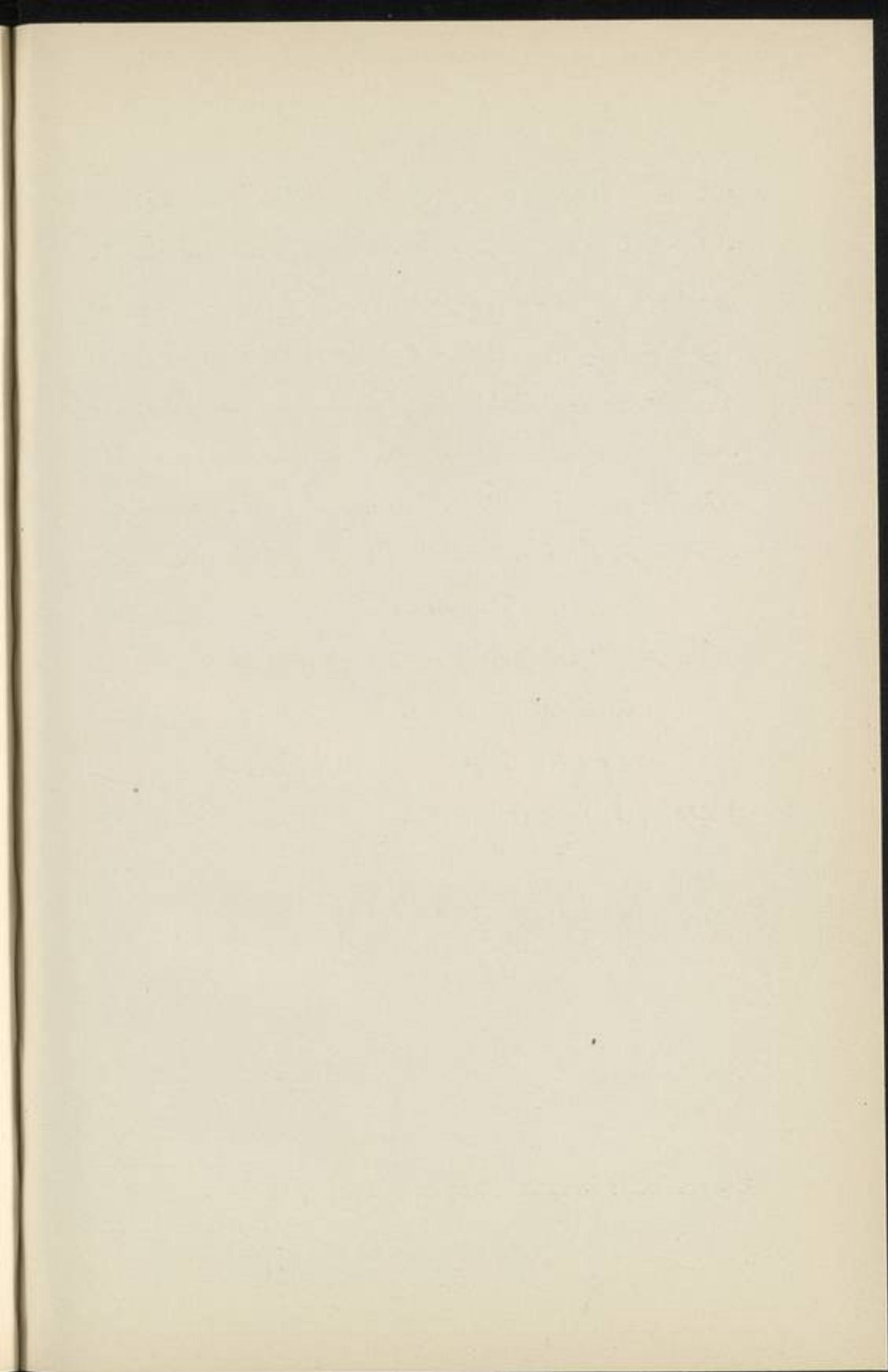
رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وطم يوم مات أبو بكر ، وبلغ يوم مات عمر ، وتزوج يوم
قتل عثمان ، وولد له يوم قتل علي .

وبلغ أبا العلاء كلامه فيه فامتعض وتالم . فلما كتب ابن القارح رسالته قال فيها في هذا الخصوص مخاطباً أبا العلاء : « بلغني عن مولاى الشيخ — أدام الله تأييده — أنه قال وقد ذُكرتُ له : أعرفه خيراً ، هو الذى هجا أبا القاسم الحسين ابن على الغربى . فذلك منه أدام الله عزه رائع لى ، خوفاً أن يستشرّ طبعى ، وأن يتصورنى بصورة من يضع الكفر موضع الشكر ، وهو بتعريف التنكير أنفع لى عنده ، لجلالة قدره ودينه ونسكه . وأنا أطلعه طلعاً ، ليعرف خفّضه ورّفعه ، وفرّاداه وجمعه » . ثم ساق بعد ذلك نوادر عن هذا الوزير فى تهوره ومحبتة لفنن ، ونقضه لليهود ، فأجابه أبو العلاء فى رسالة الغفران بأن هذا الصديق قد مات ، وأولى بمن يغفر الذنب للحتى أن يغفره له وهو ميت .

وكان أبو الخطاب محمد بن على بن محمد بن إبراهيم الجبلى^(١) شاعراً ، وكان بينه وبين أبى العلاء المعرى مشاعرة ، وفيه قال أبو العلاء قصيدته :

غير مجدي فى ملتى واعتقادى نوحُ بالكِ ولا ترثمُ شادِ
ومات أبو الخطاب فى ذى القعدة سنة ٤٣٩ . كذا ذكر ياقوت فى معجم البلدان .

(١) الجبلى : نسبة إلى جبل بفتح الجيم وتشديد الباء وضما : بليدة بين النعمانية وواسط ، كما فى ياقوت .



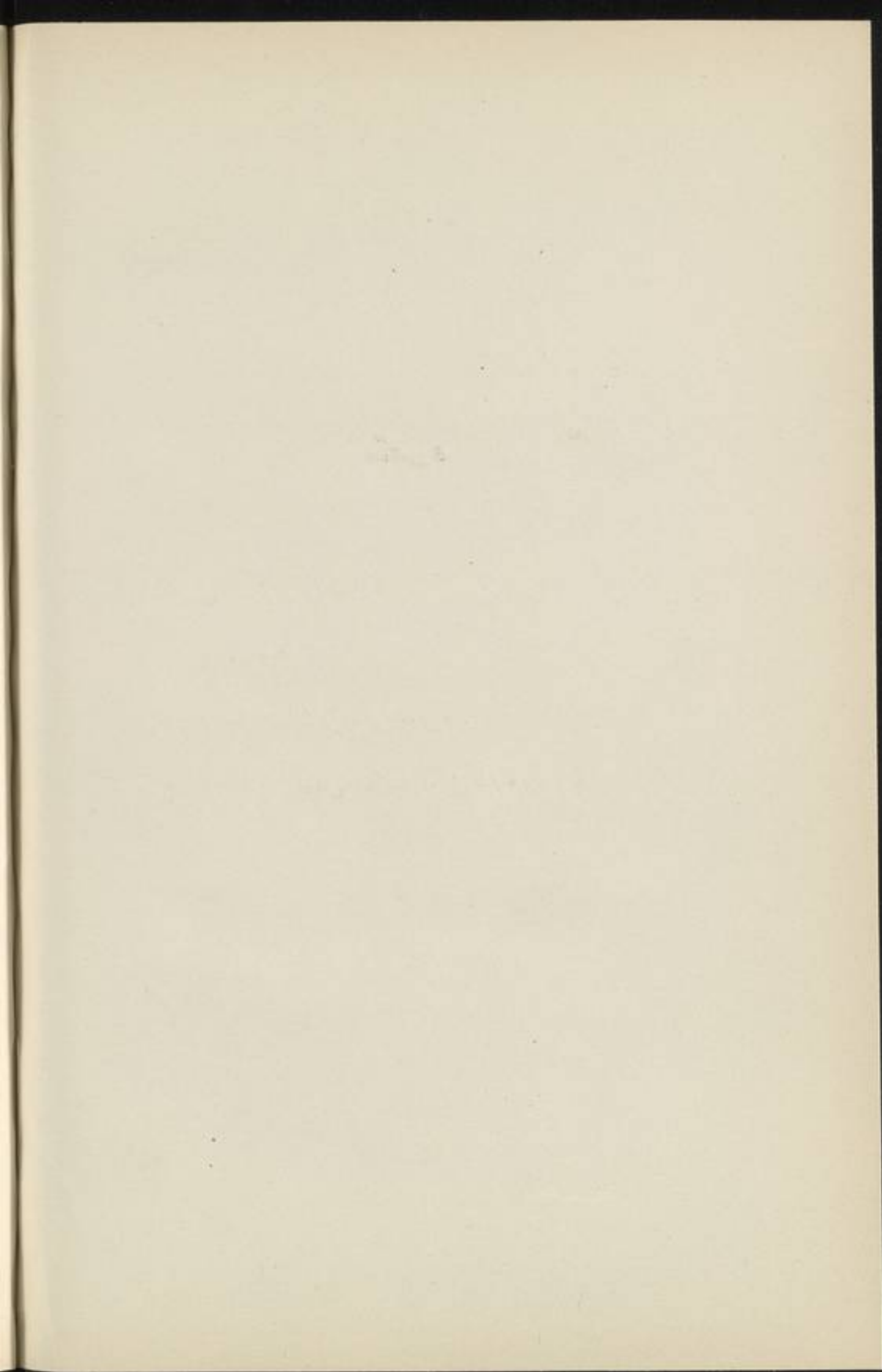
شعره

فصل في المكرر في معانيه .

» » سرقاته .

» » مآخذ الشعراء من شعره .

» » مقارنة بعض معانيه بمعاني غيره .



فصل في المكرر في معانيه.

تكرير المعاني وقع لكثير من الشعراء ، ولم تر أحداً عابهم به ، إلا إذا كان المعنى في نفسه ساقطاً مردولاً ، يؤاخذ الشاعر عليه ، فتكون مؤاخذته على تكريره وترديده أولى . ومن الشعراء من يكرر الألفاظ فيعمد إلى بيت أو شطر بيت سبق له ، فيعيده في قصيدة أخرى ؛ إما بتغيير قافية ، أو بجعل الصدر عجزاً ، أو بالعكس . وهذا النوع يسميه أصحاب البديع بالتفصيل ، فإذا كان مأخوذاً من شعر الغير سموه : إيداعاً ، أو تضميناً ، على اختلاف بينهم فيه . ولم نقصد هنا التكلم عليه ، بل اقتصرنا على ما كرره أبو العلاء من معانيه .

فمنها قوله في تشبيه مسامير حلق الدرود بعيون الجراد :

سليمية من كل قتر يحوطها قتير نبت عنه الغواني العوانس
تخيل أبصار الدبي فسهل ومُفٍ وشيء بين ذينك ناعس
كرره فقال :

كان الدبي غرقى بها غير أعين إذا رُدَّ فيها ناظر يستبينها
وكرره فقال :

كأثواب الأراقم مزقتها نخطتها بأعينها الجراد
وكرره أيضاً فقال :

بدلاص كأنها بعض ماء التمام
حلة الأيم خيطت بعيون الجراد

وكرره فقال :

أنا كل درعى أن حسبت قتيها . وقد أجدبت قيس عيون جراد

وقوله في تشبيه الدرع بالمبرد :

وما بُرْدَةٌ في طيها مثل مبرد . بعاجزة عن ضم شخص وأوصال

كرره فقال :

مُضَاعَةٌ في نشرها نِهْيُ مُبْرِدٍ . ولكنها في الطي تُحَسَّبُ مِبْرَدًا

وقوله :

ذكى القلب يخضبها نجيعاً . بما جعل الحرير لها جلالاً

كرره وبانفع فيه فقال :

غذاهن محمرّ النجيع قوارحاً . كما كنّ يُغْدَيْنَ الضريبَ مهّاراً

وقوله في تشبيه فرند السيف بآثار ديبب النمل :

ودبت فوقه حمر المنايا . ولكن بعد ما مُسِخَتْ نَمَلًا

كرره فقال :

كأن المنايا جيش ذرّ عمرهم . تخذن إلى الأرواح فيه مساراً

وكرره أيضاً فقال :

ما كنت أحسب جفناً قبل مسكنه . في الجفن يطوى على نار ولا نهر

ولا ظننت صغار النمل يمكنها مشى على اللجج أو سعى على الشعر^(١)

وقوله في تشبيهه طحلب الماء باللاثام :

وملثم بالغلغلق الجعد عرست عليه فلم تكشف خفي لثامه
وكرره فقال :

وكم أوردتها عداً قديماً يلوح عليه من خزي خمار

وقوله :

فالنفس تبني الحياة جاهدة وفي يمين المليك مقودها
فلا اقتحام الشجاع مهلكها ولا توقي الجبان مخلدُها

كرره فقال :

فكن في كل نائبة جريثاً تُصب في الرأي إن خطى الهدان^(٢)
وسائل من تنطس في التوقي لأية علة مات الجبان

وقوله :

تمتع أبكار الزمان بأيده وجئنا بوهن بعد ما خرف الدهر
كرره فقال :

كأنما الخير ماء كان وارده أهل العصور فما أبقوا سوى العكر
وقوله :

وكل يريد العيش والعيش حتفه ويستعذب اللذات وهي سمام

(١) السر : جمع سمير .

(٢) الهدان : الضعيف الجبان .

كرره فقال :

تود البقاء النفسُ من خيفة الردى وطول بقاء المرء سَمًّا مُجَرَّبُ

وقوله :

وافقتهم في اختلاف من زمانكم والبدر في الوهنِ مثل البدر في السَّحَرِ

كرره فقال :

وما البدر إلا واحد غير أنه يغيب ويأتي بالضياء المجدد
فلا تحسب الأعمار خلقاً كثيرة فجعلتها من نير متردد

وقوله في رثاء أمه :

مضت وقد اكهلتُ نفلتُ أنى رضيع ما بلغتُ مدى الفِطام

وكرره في رثائها أيضاً فقال :

دعا الله أمّا ليت أنى أمّها دُعيتُ ولو أنّ الهواجر آصال

مضت وكأني مرُضعٌ وقد ارتقت بي السنُّ حتى شكلُ فوَدَى أشْكالُ

فصل في سرقاته

هذا باب لم أقف عليه مجموعا ، فيسهل على تناوله ، واستيفاء الكلام فيه ؛ وإنما أذكر منه ما اتفق لى العثور عليه في كتب الأدب عند كتابة هذه النبذة ، أو استخرجه الخاطر الكليل أثناء مطالعة ديوانه . وأبدأ بما أخذه من أبي تمام والبحتري وأبي الطيب المتنبي ، ثم أذكر ما أخذه من غيرهم من غير ترتيب .
فمن ذلك قول أبي تمام :

والحظَّ يُعطاه غيرُ طالبه ويحُرِّزُ الدرَّ غيرُ مجتلبه
تلك بنات الخاض راتعة والعودُ في كوره وفي قتيبه

أخذه أبو العلاء وأخرجه في بيت واحد فقال :

هو الحظَّ غيرُ الوحش يستاف أنفه خزأى وأنف العود بالعود يُخزم

وقال أبو تمام :

ثم انقضت تلك السنون وأهلها فكأنها وكأنهم أحلام
أخذه أبو العلاء وزاد عليه ، فقال :

فأضحوا حديثا كالمنام وما انقضى فسيان منه بقظة ومنام

وقال أبو عبادة البحتري :

أخجلتني بندي يديك فسودت ما بيننا تلك اليد البيضاء
وقطعتني بالوصل حتى إنني متخوف ألا يكون لقاء
أخذها أبو العلاء وضمن معناها في صدر بيته ، فقال وأجاد :

لو اختصرتم من الإحسان زرتكم والعذب يهجر للإفراط في الخصر

وهذا البيت من معجزاته ، إلا أنه أورده في غزل القصيدة ، وكان مديحها
أولى به .

وقال البخترى :

نشوان يطرب للسؤال كأنما غناه مالك طيِّء أو مَعْبِد
أخذه أبو العلاء وزاد فيه زيادة لا تخفى على الأديب ، فقال :
فما ناح قرى ولاهب عاصف من الريح إلا خاله صوت سائل
فالبخترى جعل ممدوحه يطرب لصوت السائل ، طرب المنتشى من المغنى
المجيد ، وأبو العلاء جعله كلما سمع صوتاً من تطريب حمام ، أو إزعاج أرواح ؛ خاله
صوت سائل ، لمزيد اعتنائه بالسؤال ، وولعه بالنوال .

وقال أبو الطيب المتنبى في وصف فرس :

وأصرع أى الوحش قفيمته به وأنزل عنه مثله حين أركب
أخذه أبو العلاء فقال :
أصيل الجَدِّ سابقه تراه على الأئِنِ المكرر مستريحاً

وقال أبو الطيب :

يقولون تأثير الكواكب في الورى فما باله تأثيره في الكواكب
أخذه أبو العلاء ، فقال :

من قال إنَّ التَّيَّرات عوامل فيضدَّ ذلك في علاك يقول
يعملن فيما دونهن بزعمه ولهن دونك مطلع وأفول

قال شارحه أبو يعقوب النحوى : وقول أبي العلاء أرفع ؛ لأنه جعل المدوح

فوق النجوم . انتهى .

وأقول أنا : إن أبا العلاء إنما شرح المعنى ووضحه ، فبين أن علة عدم تأثير

الكواكب فى ممدوحه علوه عنها ، وهذا مستفاد من قول المتنبي :

* فما باله تأثيره فى الكواكب *

لأن المؤثر فى العادة أعلى وأقوى من المؤثر فيه ، ففيه معنى بيتى المعرى وزيادة .

وقال أبو الطيب :

نحن بنو الموتى فما بالناس نعان ما لا بُدَّ من شربه

أخذه أبو العلاء فقال :

ما رغبة الحى بأبنائه عما جنى الموت على جدّه

وقال أبو الطيب :

وأنا الذى اجتلب المنية طرفه فَمَنْ المطالبُ والقتيلُ القاتلُ

أخذه أبو العلاء فقال :

وآفة العاشق فى طرفه وآفة الصارم من حدّه

وكلا البيتين فيه زيادة عن الآخر لا تخفى .

وقال أبو الطيب :

تمر بك الأبطال كلمى هزيمةً ووجهك وضاح وثغرك باسمُ

أخذه أبو العلاء ، فقال :

يتهللون بطلاقةً وكلومهم ينهلُّ منهم النجيعُ الأحمرُ

وبيته أبلغ في المدح ، لأن غاية المتنبي أن وصف ممدوحه بتهمله عند هزيمة جيشه ، احتقاراً للأخطار . والمعرى جعل ممدوحيه يتهللون وهم مصابون يقطر منهم الدم .

وقال أبو الطيب :

يموت راعي الضأن في جهله مِيتة جالينوسَ في طبه
وربما زاد على عمره وزاد في الأمن على سريره
أخذه أبو العلاء ، فقال :

رددت إلى ملك الخلق أمرى فلم أسأل متى يقع الكسوف
فكم سلم الجهول من المنايا وعوجل بالحمام الفيلسوف

وقال أبو الطيب :

في رتبة حجب الورى عن نيلها وعلا فسموه على الحاجبا
أخذه أبو العلاء فقال :

وقد سماه سيده علياً وذلك من علو القدر قال
وفي بيت المتنبي زيادة ساعد عليها لقب ممدوحه .

وقال أبو الطيب أيضاً :

أنى الزمان بنوه في شبيبته فسرهم وأتيناه على الهرم
أخذه أبو العلاء فقال :

تمتع أبكار الزمان بأيده^(١) وجئنا بوهن بعد ما خرف الدهر

(١) الأيد : القوة .

وقال أبو الطيب :

وقد يتقارب الوصفان جدا وموصوفاهما متباعدان

أخذه أبو العلاء ، فقال :

قد يبعد الشيء من شيء يشابهه إن السماء نظير الماء في الزرق

وقال أبو الطيب :

وإذا خفيت عن العبيّ فعاذر أنت لا تراني مقلة عمياء

أخذه أبو العلاء فقال :

وكم عينٍ تؤمل أن تراني وتفقد عند رؤيتي السوادا

يريد : إذا رأيتني خفيت عليها ، فكأنها عميت ، وفقدت سوادها .

وقال عمارة بن عقيل :

وما النفس إلا نطفة^(١) في قرارة إذا لم تُكدر كان صفواً غدورها

أخذه أبو العلاء فقال :

والخلّ كالماء يبدي لى ضمائره مع الصفاء ويخفيها مع الكدر

وقال النابغة الذبياني في النعمان :

فإنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منها كوكب

أخذه أبو العلاء ، فقال في قصر نزلته عروس ممدوحه ، فخرج من كان فيه

من حاشيته :

(١) النطفة بالضم : الماء الصافي قل أو أكثر .

كان كالأفق حين همت به الشمس تنادت بجومه بالمسير

وقال عدي بن الرعلاء :

ليس من مات فاستراح بميت
إنما الميت ميت الأحياء
ألم به أبو العلاء فقال :

سالم أعدائك مستسلم
والعيش موت لهم مرغم

وقالت ليلي أخت الوليد بن طريف ترضيه :

أيا شجر الخابور مالك مورقا
كأنك لم تجزع على ابن طريف
أخذه أبو العلاء وتصرف فيه ، فقال :

وما كنت أدري أن مثلك يشتكي
ولم يتغير للرياح نسيم

وقال عبيد بن الأبرص يصف السحاب :

كان أقرابه لما علا شطباً^(١)
أقرب أبلق يبغى الخيل رماح
أخذه أبو العلاء فقال :

سرت لها ترمح أفلاها
في الجو بُلوق عربيات

ذكروا أنهم يصفون السحاب بالبلق ، لما فيها من لَمع البروق ؛ وهو قول
حسن . والأقرب عندي أنهم يصفونها بذلك ، لأن فيها ما هو رقيق ، وما هو
كثيف ، وما هو متقطع ؛ فيخيل لناظرها أنها بلقاء .

(١) الأقرب : جمع قرب بالضم أو بضمين ، وهو الحاصرة . وشطب : جبل معروف .

وقال الحطيئة :

يرى البخل لا يُبقي على المرء ماله ويعلم أن المرء غيرُ مخلد
أخذه أبو العلاء فقال :
إذا أوتيت مالا فابذنه فما يُبقيه توفير وخزنُ

وقال الأفوه الأوزي :

وقدور كالرثبا راكدة وجفان كالجوابي مترعة
أغار عليه أبو العلاء فقال :
وقدورهم مثل الهضاب رواكداً وجفانهم كرحيبة الأفياف^(١)

وقال كثير عزة :

وكنت كذات الظلِّع لما تحاملت على ظلِّعها بعد العثار استقلت
أخذه أبو العلاء فقال :
أودعكم يا أهل بغداد والحشا على زفرات ما بينين من اللذع
وداع صن^(٢) لم يستقل وإنما تحامل من بعد العثار على ظلِّع

وقال امرؤ القيس :

وقد أغتدى والطير في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل
أخذه أبو العلاء ، وغلا بأن جعله قيداً للريح ، فقال :

(١) الأفياف : جمع فيف ، وهي البرية الواسعة .

(٢) صن كرضى ، فهو صنّى وصنن : مرض .

وخيلًا لو جرت والريح شأواً ظننا الريح أوثقها إسارُ

وقال أبو فراس الحمداني :

ونحن أناس لا توسط بيننا لنا الصدر دون العالمين أو القبر
أخذه أبو العلاء ، فقال :

وأصبح واحد الرجلين إماماً مليكاً في المعاشر أو أبيعلاً

وقال بديع الزمان الهمذاني :

وكاد يحكيك صوب الغيث منسكبا لو كان طلق الحيا يطر الذهبا
والدهر لو لم يخن والشمس لو نطقت والليث لو لم يصد والبحر لو عذبا
أخذ أبو العلاء نصف شطر منه ، وقصر أى تقصير ، فقال :

إذا قيل بحر فهو ملح مكدر وأنت نيمر الجود عذب الشائل

وقال أبو حية النيرى :

ولما أبت إلا التواء بودها وتكديرها الشرب الذى كان صافيا
شربنا برنق^(١) من هواها مكدر وكيف يعاف الرنق من كان صاديا
والبيتان فى غاية الحسن ، إلا أن أبا العلاء ضمن معناهما فى بيت ، فقال :

ولما أن تجهنى مرادى جريت مع الزمان كما أرادا

وقال أبو الشيص :

أجد الملامة فى هواك لذيدة طمعاً لذكرك ، فليلنى اللوم

(١) الرنق والرنيق : السكر .

أخذه أبو العلاء فقال :

لم يبق غير العذل من أسبابهم فأحبت من يدنو إلى عدول

وقال أبو الشمقمق في حرقاقه^(١) طاهر بن الحسين :

عجبت لحرقاق ابن الحسين كيف تعوم ولا تفرق

وبجران من تحتها واحد وآخر من فوقها مطبق

وأعجب من ذلك عيدانها وقد مَسَّها كيف لا تورق

أخذ أبو العلاء البيت الثالث ، وزاد فيه بأن بين علة عدم إوراق العود

وأحسن التعليل ، فقال :

من كلِّ مَنْ لولا تسعر بأسه لاخضرَّ في يميني يديه الأشمُرُ

وقال آخر في الحمام ، وينسب للمنازى :

شجى قلب الخلى ففيل غنى وبرح بالشجى ففيل ناحا

قصر أبو العلاء في أخذه فقال :

فقلت تغنى كيف شئت فأنما غناؤك عندي يا حمامة إغوالُ

وقالت ولادة بنت المستكفي :

ترقب إذا جنَّ الظلام زيارتي فإني رأيت الليل أكرمَ لسير

وإني منك ما لو كان بالشمس لم تلخ وبالبدر لم يطلع وبالنجم لم يسر

وقال أبو العلاء :

منك الصدود ومتى بالصدود رضا من ذا على بهذا في هواك قضى

(١) الحرقاق : سفينة فيها مرهم نيران ، يرى بها العدو .

بي منك ما لوغدا بالشمس ماطلمت من الكآبة أو بالبرق ما ومَصَا
ولم أدر أيهما أخذ من الآخر ، لاجتماعهما في عصر واحد . ولا يبعد أن يكون
عن التوارد ، إلا أن قول ولادة أبلغ !

أما قول أبي العلاء :

منى إليك مع الرياح تحية مشفوعة ومع الوميض رسول
فلا يعد من السرقة في شيء ، وإن سبقه غيره إليه ؛ لأن إرسال التحية مع
النسيم أو البرق من المعاني الشائعة التي تداولتها الشعراء ، ولم تزل تتداولها .
وإنما يظهر التفاضل بينهم فيها بحسن سبكها وإبرازها في اللفظ المقبول ، والتلطف
في تصويرها . ولهذا تركت التنبيه عما وقع في شعره منها ، كما أني لم أتعرض لما
خفي ودق من سرقاته ؛ لئلا يمر ناظر عليه من غير تثبت فينكره ، ويرميني
بالخطأ أو التحامل .

واعلم أن ما ذكرناه عن المعري في هذا الباب قلما يخلو منه شاعر قديم
أو حديث ، وأسنا بواصلين فيه إلى حد الجزم بأنه تعمد سرقة ؛ إذ قد يعرض
المعنى للشاعر فينظمه ، ولا يمر بخاطره وقت نظمه أنه مسبوق به ، وربما كان
عما لم يقف عليه في شعر غيره . وباب التوارد واسع ، كما وقع لطرفة بن العبد
وامرئ القيس في قوله :

وَقُوفًا بِهَا صَحْبِي عَلَى مَطِيئِهِمْ يَقُولُونَ لَاتِهَلِكْ أَسَى وَتَجَمَّلِ
فأتى به طرفه في معلقته مغنيراً لقافيته فقط ، فقال : (وتجملد) بدل (وتجمل) ،
وثبت عند الرواة أنه لم يطلع عليه قبل ذلك . وقال علي بن منصور الحلبي المعروف

«ابن القارح^(١) : « كان محمد بن وكيع متأدباً ظريفاً ، ويقول الشعر ، وعمل كتاباً في سرقات المتنبي ، وحاف عليه كثيراً . وسألني يوماً أن أخرج معه ، واشتصحب مُعَنَّياً وأمره ألا يغني إلا بشعره ، فغني :

لو كان كلّ عليل يزاد مثلك حُسناً
لكان كل صحيح يودّ لو كان مُضني
يا أكل الناس حسناً صلّ أكل الناس حُرناً
غَنيت عني ومالي وجه به عنك أغنى

فقلت : أنتقل عليك المواخذة ؟ فقال : لا . فقلت : أبياتك مسروقة ؛
الأول من قول بعضهم :

فلو كان المريض يزيد حسناً كما تزداد أنت على السقامِ
لَمَّا عِيدَ المريضُ إِذَا وَعُدْتُ شكايته من النعمِ الجسامِ
والثاني من قول رؤبة :

مَسْلَمٌ^(٢) لا أنساك ما حَيَّيتُ لو أَشْرَبُ الشُّلُوانَ ما سَلَّيتُ
* مالي غني عنك ولو غَنيتُ^(٣) *

فقال : والله ما سمعت بهذا ، فقلت : إذا كان الأمر على هذا ، فاعذر المتنبي على مثله ، ولا تبادر إلى الحطّ عليه ، ولا المواخذة له ؛ والمعاني يستدعي بعضها بعضاً . « انتهى .

(١) ابن القارح هذا هو الذي أرسل برساته المشهورة لأبي العلاء المعري ، فأجابها برسالة الففران .

(٢) يخاطب مسلة بن عبد الملك .

(٣) رواية ديوان رؤبة : (ما بي غني عنك وإن غَنيت) .

ولا بد لنا قبل ختم هذا الباب من ذكر نوع يعده كثيرون من السرقة
وليس منها ، كقول الطغرائي :

وذى شَطَاط كصدر الرمح معتقل بمثله غير هَيَّابٍ ولا وَكَلٍ

وقول الحريري في مقامته الرابعة والأربعين من قصيدة بأثية :

وذا شَطَاط كصدر الرمح معتقل صادفته بمنى يشكو من الحَدَبِ

قال الصفدي : « ومثل هذا لا يعد سرقة ؛ لأن المعنى ليس ببديع ، ولا لفظه
بفطيم^(١) ، ولا الطغرائي بعاجز عن الإتيان بمثله ، بل جرى على لسانه ، ونسى
أن هذا لِنَمِيرِهِ ؛ لعدم الاحتفال بأمره إذ هو ليس بأمر كبير ، وهذا كثير
الوقوع للناس ، لا يكاد يسلم الفحول منه . » انتهى كلامه .

وقال التنوخي في زهر الربيع : « ومما يعد سرقة وليس بها ، اشتراك اللفظ
المتعارف ، كقول عنتره :

وخيلٍ قد دلفتُ لها بخيلٍ عليها الأسد تهتصر اهتصارا

وقالت الخنساء :

وخيلٍ قد دلفت لها بخيلٍ فدارت بين كبشها راحاها

اتهى .

قلت : وتحقيق المقام أن الكلام المأخوذ يشترط فيه ألا يكون ذا معنى كبير
أو لفظ بالغ حدًّا ما من الرشاقة ، فإذا أدججه الشاعر في بيته جاء به غير مقصود
لذاته ، بل يجعله كالتوطئة لمعنى آخر مقصود له ، يبنى البيت عليه . ويظهر لك ذلك
فيما استشهد به الصفدي والتنوخي ، وهو كثير في شعر العرب والمُحدَثين ، وقد
وقفت منه على جملة صالحة ، لوجعت لجات رسالة لطيفة ، كقول الراعي التَّمَيْرِي :

(١) أى عظيم .

فتى يشتري حسن الثناء بماله إذا ما اشترى الخزاة بالمجد يهس
وهو مثل قول الأبيرد :

فتى يشتري حسن الثناء بماله إذا السنة الشهباء^(١) أعوزها القطرُ
وتبعهما أبو نواس فقال :

فتى يشتري حسن الثناء بماله ويعلم أن الدائرات تدور
وقول دريد بن الصّمة :

أمرتهم أمرى بمنعرج اللوى فلم يستبينوا الرشد إلا ضجى الغد
وهو مثل قول المتلمس :

أمرتهم أمرى بمنعرج اللوى ولا أمر للمعصي إلا مُصَيِّعُ
وفى هذا القدر كفاية . والكلام فى السرقات الشعرية وأنواعها ، واستيعاب
ما قيل فيها ، لا يتسع له مثل هذا المختصر ؛ فإذا منّ الله بتوفيقه ، وكان فى العمر
مهلة ، وضعنا فيها رسالة تستقل بجمع شقاتها ، وتفصيل ما أجمل منها .

ومن غريب ما وقفت عليه من ملاحظاتهم ، ما رواه على بن العباس
النوبختى ، قال : قال لى البحرى : أتدرى من أين أخذ الحسن^(٢) قوله :

ولم أدر من هم غير ما شهدت به بشرق سابط الديار البسابس
فقلت : لا ، فقال : من قول أبى خراش :

ولم أدر من ألقى عليه رداءه ولكنه قد سلّ عن ماجدٍ مخضٍ
فقلت : المعنى يختلف ، فقال : إنا نرى حذو الكلام واحداً وإن اختلف

المعنى . انتهى .

(١) السنة الشهباء : الكثيرة الثلج الجدية ، والشهباء أمثل من البيضاء ، والحراء أشد
من البيضاء . وسنة غبراء : لا مطر فيها .

(٢) الحسن هو أبو نواس .

قلت : إذا كان مراد الباحثى مجرد البيان ، فقد لاحظ ملاحظة دقيقة ،
وإذا كان قصده الخط من أبى نواس والنعمى عليه ، فقد لعمري ركب متن
عشواء ، وتخبط فى ظلماء ؛ فإن احتذاء كلام العرب مطلوب فى البلاغة ، وما
حث العلماء على إكثار النظر فى أشعارها واستظهارها إلا توصلا إلى ذلك .
ولولا محاولته ما صبرنا على الغدائر المستشزرات ، والقنو المتشكل ؛ بل لو لم
يصل الباحثى شعره بتلك المسحة العربية ، ما كانت له الديباجة الغريبة التى
انفرد بها بين معاصريه ، وبذها أهل طبقته . والله أعلم .

فصل في مأخذ الشعراء من شعره

القول في هذا الباب كالقول في سابقه ؛ فلهذا نقتصر على ذكر ما حضر منه ، دون استيعاب سائر . فمنه قول أبي العلاء :

لا تطلبن بآلة لك رفعة قلم البليغ بغير حظ مغزَلُ
سكن السما كان السماء كلاهما هذا له ربح وهذا أعزل
أخذه أبو إسحق الغزى ، فقال :

والحسن والقبیح قد تحويهما صفة شان البياض وزان الشيب والشنبا
ظُبَا الْمُحَارَفِ^(١) أقلام مكسرة رءوسهن وأقلام السعيد ظُبَا

وقال أبو العلاء يصف خيلا :

ولما لم يسابقهن شيء من الحيوان سابقن الظلالا
أخذه ابن حمديس فقال وأجاد :
ويكاد يخرج سرعة من ظله لو كان يرغب في فراق رفيق

وقال أبو العلاء :

إذا اشتاقت الخيل المناهل أعرضت عن الماء فاشتاقت إليها المناهل
أخذه الطغرائى فقال :
ونفس بأعقاب الأمور بصيرة لها من طلاع الغيب حاد وقائد
وتأنف أن يشقى الزلال غليلها إذا هي لم تشتق إليها الموارد

(١) يقال رجل محارف بالمعجمة ومحارف بالمهملة وفتح الراء فيهما ، أى محدود متنوع .

وقال أبو العلاء :

وما ازدهيت وأنواب الصبا جُدُّ . فكيف أزهى بثوب من صبا خلق
أخذه الطفرأى أيضاً فقال :

لم أرتض العيش والأيام مقبلة فكيف أرضى وقد وَّات على عجل

وقال أبو العلاء :

واقفهم في اختلاف من زمانكم والبدر في الوهن مثل البدر في السحر
أخذه الطفرأى فقال :

مجدى أخيراً ومجدى أولاً شرع والشمس رآد الضحى كالشمس في العطل

قال الصفدى : ولكن قول المعرى أطف عبارة ، وأحسن شارة وإشارة ؛

لأن الطفرأى أغرب في لفظي رآد والطفل ، وعذوبة الألفاظ أمر مهم في البلاغة .

اتهى . وقد ناقشه بدر الدين الدماميني في « نزول الغيث » بما لا يخلو إرادته من

فائدة ، ونص عبارته : « أقول : الإغراب في اللفظ ، هو الإتيان به غريباً ، وقد

نص بعض الأئمة على أن الغرابة كون الكلمة وحشية غير ظاهرة المعنى ، ولا مأنوسة

الاستعمال ؛ فمنه ما يحتاج في معرفته إلى أن ينقر ويبحث عنه في كتب اللغة

المبسوطة ، ثم الغريب منه حسن ، وهو الذي لا يعاب استعماله عند العرب ؛ لأنه

لم يكن وحشياً عندهم ، مثل اشمخَّرَ واقطر ، ومنه قبيح يعاب استعماله مطلقاً ،

ويسمى الوحشى الغليظ ؛ وهو أن يكون ، مع كونه غريب الاستعمال ، ثقيلاً على

السمع ، كريها في الذوق ، ويسمى المتوعر أيضاً ، مثل اطالعخ الأمر . وعلى كل تقدير

فلا نسلم أن رآد والطفل من الغرابة في شيء ، كما ادعاه الصفدى . وفي قوله : وعذوبة

الألفاظ أمر مهم في البلاغة ، قرينة دالة على أنه أراد أن الرآد والطفل من الغريب

المستكره في الذوق ، المسمى بالمتوعر ؛ وظاهر أن ذلك خطأ نشأ من سوء الذوق ،

وعدم المعرفة بكلام القوم ، والإعراض عن التدبر لاصطلاحهم . انتهى كلامه .

وقال أبو العلاء :

وأغدو ولو أن الصباح صوارم وأسرى ولو أن الظلام جمحافل
أخذه غفيف الدين التلمساني فقال :

أسير ولو أن الصباح مواكب وأسرى ولو أن الظلام قتام

وقال أبو العلاء في سيف :

ودبت فوقه حُمر المنايا ولكن بعد ما مُسخت نمالا
أخذه الوزير أبو محمد عبد الغفور فقال :

تريه المنايا الحمر فيه وجوهنا مماثلة الأرواح في خِلقة الذرِّ

وقال أبو العلاء :

والنجم تستصغر الأبصار رؤيته والذنب للطرف لا للنجم في الصغر
أخذه التهامي فقال :

لم أخفَ إلا للعلوِّ وإنما تُخطي الشَّهالعه الأَبصارُ

وقال أبو العلاء :

وفضل الشمس في الأيام باق وإن مدّت من الكبر اللَّعَابَا
أخذه ابن سناء الملك ، فقال من قصيدة يهجو بها الشمس :

أنت عجوز لم تَبرجتِ لي وقد بدا منك لعاب يسيل

وقال أبو العلاء :

خفف الوطء ما أظن أديم الأَرْض إلا من هذه الأجساد

أخذه مهيار الديلمي فقال :

رويدا بأخفاف المطى فإتما . تدا من جباه فى الثرى وخذود

وقال أبو العلاء فأجاد :

الموقدون بنجد نار بادية لا يحضرون وقد العز في الحضر
إذا همى القطر شبتها عبيدهم تحت الغمام للسايرين بالقطر

أى إذا أطفأ المطر نارهم شبتها عبيدهم بالقطر ، وهو العود ليهتدى السارى
برأخته . قال الصفدى : وعليه اعتمد ابن عباد فى قوله ، على أنه ما فارق المعنى ،
ولا خالف المعنى ؛ وهو :

المكثيرين من الكباء^(١) بنارهم لا يوقدون بغيره للسايرى

وقال أبو العلاء :

سألن فقلت مقصدنا سعيد فكان اسم الأمير لمن فلا
أخذه عصر بنا سليم رحى بك رحمه الله ، فقال فى محمد شريف باشا وزير مصر :
يقول القوم مطلبكم عزيز فقلت نم ومقصدنا شريف

وقال أبو العلاء :

تحية كسرى فى السناء وتبوع لربك لا أرضى تحية أربع
أخذه أحمد شوقى بك ، فقال فى مدح السلطان عبد الحميد :
سلام الله لا أرضى سلامى فكل تحية دون المقام

(١) الكباء ككساء : عود البخور ، أو ضرب منه .

فصل في مقارنة بعض معانيه بمعاني غيره

قال أبو العلاء :

جهلٌ بمثلك أن يزور بلادنا
أو مارأيت الليل يلقي شهبه
يختال بين أساور و خلاخل
حتى يجاوزها بحلة عاقل

وقال الوزير ابن زيدون :

قميدك أنى زرت نورك واضح
هبيك اعتررت^(١) الحى واشيك هاجع
وعطرك تمام وحليك مرجف
وفرعك غريب و ليك أغصف^(٢)
وركيف اعستفت الهول خطوك مدمج
وردفك رجراج وخصرك مُحْطَفٌ^(٣)

أقول : مدار المعنى فى الشعرين على التعجب من مخاطرة هذه المعشوقة فى زيارة صاحبها . فتناولها كلا الشعارين ، وتلاعب به ، فأبرزه فى الصورة التى شاء له اقتداره إبرازه فيها ؛ وقد أجاد كل منهما فيما حاوله ، وتساويا فى الإحسان ، فلا أرى للترجيح مدخلا بينهما . ويلوح لى أن كليهما اعتمد فى توليد معناه على قول أبى الطيب :

قلق المليحة وهى مسك هتكها ومسيرها بالليل وهى ذكاه
ولا يظهر ما قلته إلا بزيادة التدقيق ، وإطالة التأمل .

وقال أبو العلاء :

آلى أميرك لا يسرى الخيال لنا
وكم تمننت رجال فيك مُعْضَبَةٌ
إذا هجمنا فقد أسرى وما علمنا
أن يبصروه فلم يظهر لهم سَقَمًا

(١) المتر: الزائر .

(٢) الأغصف : المظلم .

(٣) المحطف : المنطوى .

وقال ماني الموسوس وقد سأله محمد بن طاهر إجازة قول الشاعر :
حجبوها عن الرياح لأني قلت ياريح بلقيها السلاما
لورضوا بالحجاب كان ولكن منعوها يوم الرياح الكلاما
فقال :

فتنفست ثم قلت لطيفي وربك لو زرت طيفها إلماما
حيها بالسلام سرا وإلا منعوها لشقوتي أن تناما
أقول : خلاصة المعنى المبالغة في الحجر عليها . فادعى أبو العلاء أن ولياً
أمرها بالغ في حجبتها ، حتى حلف على خيالها ألا يزور حبيبها ، ولكن الخيال
غافلها وزاره ، ولضناه في حبه نحل ، نخفي على من يترصد رؤيته . وقصر ماني فلم
تصل يده إلى الخيال . وبيتاه على ما فيهما من حسن التخيل وعذوبة الألفاظ
ينحطان عن بيتي أبي العلاء .

وقال أبو العلاء :

ذكرت بها قطعاً من الليل وافياً مضى كضئ السهم أقصر من قطع
وقال آخر :

ظللنا عند دار أبي نعيم بيوم مثل سالفه الذباب
وقال آخر :

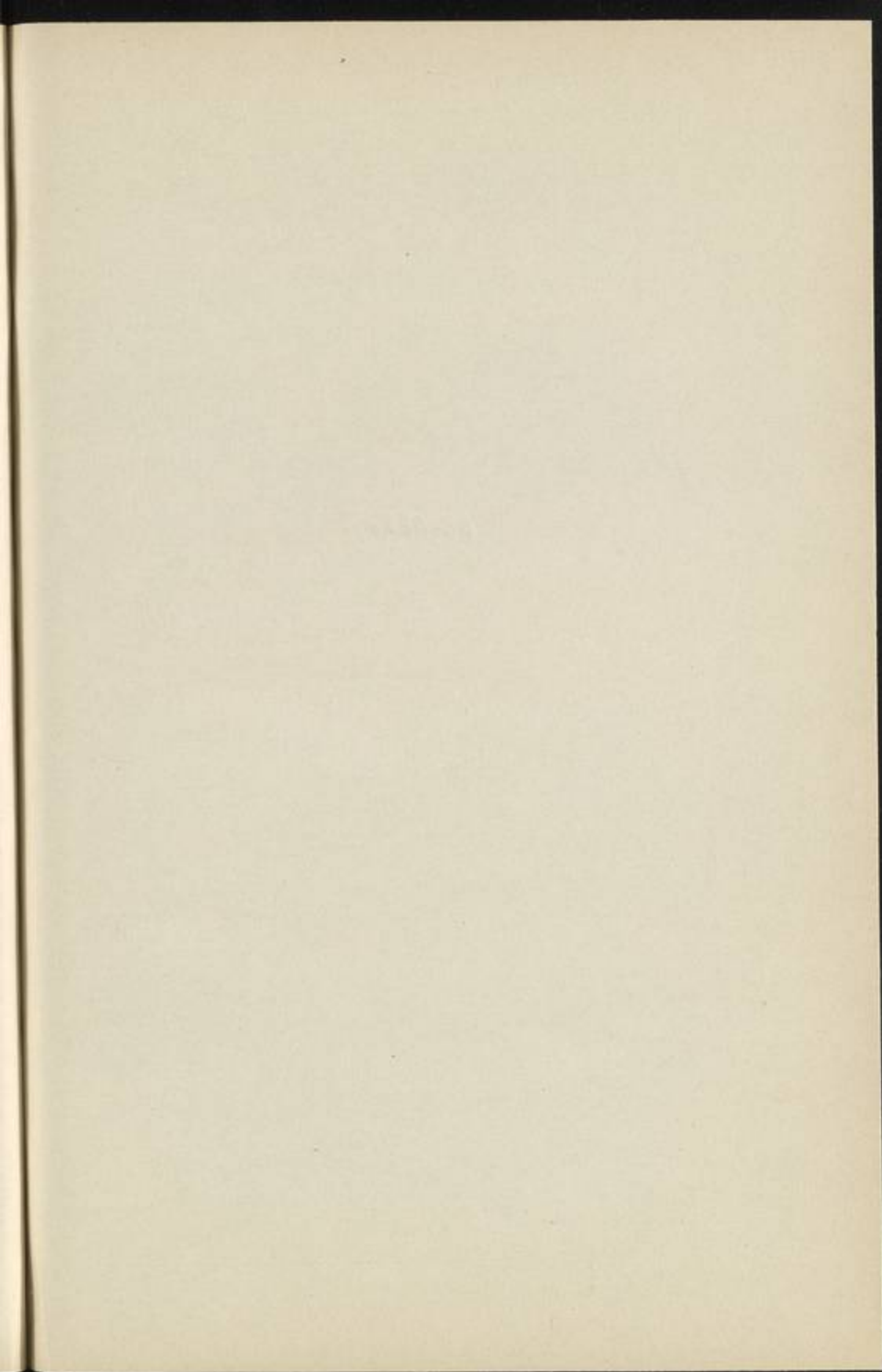
ويوم كإبهام القطة مزين إلى صباه غالب لي باطله
فأبو العلاء شبه الليل في قصره بالقطع ، وهو النصل الصغير . والثاني شبه
يومه في قصره بعنق الذباب . والثالث شبهه بإبهام القطة . قال أبو يعقوب
النحوي : وهذا أشد مبالغة من قول أبي العلاء ، إلا أنه أغرب في الصنعة ، من
حيث إنه ذكر قطع الليل وقطع السهم ، جاعلاً مضى الليل كضئ السهم . هـ .

معتقده

فصل في اختلافهم فيه .

» » معتقده في الله .

» » معتقده في النبوات والرسول .



فصل في اختلافهم فيه

لم يختلف الناس في رجل اختلافهم في أبي العلاء ، ولا تراوحوا بشخص بين الكفر والإيمان تراوحهم به . فلا غرو إذا قضى مثل هذا التناقض على الباحث في أمره ألا يتلقى كل ما قيل عنه بالقبول ، وأن يجنح إلى مقارنة مناطق به بما نقل عنه ؛ توصلاً إلى حكم بات فيه ؛ إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

وقد تأملت المختلفين فيه ، فوجدتهم على ثلاثة أقسام :

فريق متزندقون ، يُكفرونه ويحبونه لكفره ، ومنهم متفرنجة هذا العصر ؛ أو مؤمنون يبغضونه لذلك .

وفريق يذهبون إلى صحة إيمانه ، وربما تغالوا فألحقوه بالأولياء الواصلين ، ورووا له السكرات .

وآخرون متحIRON أمسكوا عنه ، ووكلوا أمره لخالقه .

وأنا بادئ بذكر أقوالهم فيه ، ثم معقبها بما ثبت من أقواله ؛ مقسمة إلى فصول ، كما فعلت بأخباره . فأقول :

ذكر غير واحد أنه كان متهماً في دينه ، وأنه اجتاز باللاذقية ونزل ديراً كان به راهب له علم بأقوال الفلاسفة ، فسمع كلامه ، فحصل له بذلك شكوك . واستدلوا أيضاً على إلهاده بتجافيه عن أكل الحيوان حسماً وأربعين سنة ، قالوا : وهذا من اعتقاد الحكماء المتقدمين ؛ لأنهم يرون في ذبح الحيوان تعذيباً له . وسيأتي الكلام على ذلك في فصل مستقل . ونقلوا عن تلميذه أبي زكريا التبريزي أنه قال : قال لي المعري مرة : ما الذي تعتقد ؟ فقلت في نفسي : اليوم أقف على اعتقاده . فقلت له : ما أنا إلا شك . فقال : وهكذا شيخك . وقال في حقه

الباخرزى فى دُمِيَّة القمصر : « ضرير ماله فى أنواع الأدب ضريب ، ومكفوف فى قميص الفضل ملفوف ، ومحبوب خصمه الألد محجوج . وقد طال فى ظلال الإسلام أناؤه ، ولكن ربما يترشح بالإلحاد إناؤه ؛ وعندنا خبر بصره ، والله أعلم ببصيرته ، والمطلع على سريره ؛ وإنما تحدثت الألسن بإساءته ، ككتابه الذى زعموا أنه عارض به القرآن ، وعنوانه بالفصول والغايات ، ومحاذاة السور والآيات ، وأظهر من نفسه تلك الخيانة ، وجدَّت تلك الهوسات كما يُجذِّد العَيْرُ الصليانة ، حتى قال فيه القاضى أبو جعفر قصيدة أولها :

كلب عوى بمعرَّة النعمان لما خلا عن ربة الإيمان
أمرة النعمان ما أنجبت إذ أخرجت منك معرَّة العميان

انتهى .

ومن حكم بزندقته شمس الدين الذهبى ، وأطال فى ترجمته ، وذكر له فيها قبائح . قال الصفدى : وأظن الحافظ السَّلفى قال إنه تاب وأناب . وتحامل عليه أبو الفداء فى تاريخه ، وغضَّ منه كثيراً ؛ حتى اضطرب ابن الوردى لارد عليه . وفى الكوكب الثاقب أن القاضى المنازى دخل عليه فذكر ما يسمعه من الطعن فيه ، ثم قال : مالى وللناس ، وقد تركت لهم دنياهم ، فقال المنازى : وأخراهم أيضاً ، فقال : يا قاضى ! وأخراهم أيضاً . وجعل يكررها . وفى هذه الرواية تحامل من المؤلف ؛ فقد رواها ابن خلكان فى ترجمة المنازى على أنه قال له : والآخرة أيضاً ، وجعل يكررها ، ويتألم لذلك ، وأطرق ، فلم يكلمه إلى أن قام .

ونقل ياقوت عن رسالة الغفران أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما أجلي أهل الزمة عن جزيرة العرب شق ذلك على الجالين ، فيقال : إن رجلاً من يهود خيبر ، يعرف بسمير بن أدكن ، قال فى ذلك :

يصول أبو حفص علينا بِدِرَّةٍ رُوَيْدَكَ ؛ إن المرء يطفو ويرسب
كأنك لم تتبع حَمُولَةَ مَاقِطٍ لتشيع ؛ إن الزاد شيء محجب
فلو كان موسى صادقاً ما ظهرتمُّ علينا ؛ ولسكن دولة ثم تذهب
ونحن سبقناكم إلى المين فاعرفوا لنا رتبة البادي الذي هو أكذب
مشيتم على آثارنا في طريقنا وبعيتكم في أن تسودوا وترهبوا
ثم قال ياقوت : وهذا يشبه أن يكون شعره ، قد نخله هذا اليهودي ؛ أو أن
إيراده لمثل هذا ، واستلذاذه به ، من أمارات سوء عقيدته ، وقبح مذهبه . انتهى .
والعجب من ياقوت ، كيف يزعم هذا الزعم ، ومن أين أتى له أن هذه الأبيات
من شعره ، أو أنه أوردها استلذاذاً بها ، وهو إنما جاء بها في أثناء كلامه على
الزنادقة وتقييح أعمالهم . وأخر أن يكون إيراده لها في عرض إنكاره عليهم ،
من أبين الأدلة على حسن عقيدته . وليست رسالة الغفران ببعيدة على من يريد
تحقيق ذلك .

وسئل فتح الدين بن سعيد الناس : ما كان رأى الشيخ تقي الدين بن
دقيق العيد فيه ، فقال : كان يقول . هو في حيرة . فقال الصفدى : وهذا أحسن
ما يقال في أمره ؛ لأن في كلامه تناقضاً كثيراً . وإلى الله ترجع الأمور .
هذا ما وقفت عليه من كلامهم في سوء عقيدته ، إلا قليلاً منه سيرد عليك
فيما يأتي من الفصول .

ونقلوا عن رسالة ابن العديم أنه قال : إنى اعتبرت من ذم أبي العلاء ومن
مدحه ، فوجدت كل من ذمه لم يره ولا صحبه ، ووجدت كل من لقيه هو
المساح له .

وقال ابن الوردي بعد ما أورد مراسلاته مع القاضى أبي الطيب الطبري التي

مرّ ذكرها في أخباره : « وشهادة أبي الطيب في الشيخ مقدمة على شهادة الغير ، وحسن الظن خصوصاً بالعلماء قد دل عليه القرآن والحديث ، وهو لا يأتي إلا بخير . وكان شيخنا عبس حسن العقيدة فيه ؛ واعتراف الطبري له ومدحه يكفيه .

شهادة الطبريّ الحَبْرِ كافيّةٌ أيا العلاء فقل ما شئت أو فذر
من أعمد السيف عنه كان في دعة ومن نَضَى السيفَ قابِلناه بالطَّبْرِ »
انتهى كلامه . وقوله : قابِلناه بالطَّبْرِ فيه تورية ، والطَّبْرُ هو الطَّبْرَين
معرب ، ومعناه : فأس السرج ؛ لأن فرسان العجم كانت تحمله معها تقايل به ،
ويقال له عندهم التَّبْر . كذا ذكر المُحَبِّي في « قصد السبيل ؛ فيما في اللغة العربية
من الدخيل » .

ونقلوا أيضاً عن رسالة ابن العديم المذكورة أنه قال : قرأت بخط أبي اليسر
شاكر المعري في ذكره ، وكان رضى الله عنه يرمى من أهل الحسد له بالتعطيل ،
ويعمل تلاميذه وغيرهم على اسانه الأشعار ، يضمنونها أقاويل الملوحة ؛ قصداً
لإهلاكه ، وإيثاراً لإتلاف نفسه ، فقال رضى الله عنه :

حاول إهوانى قوم فما واجهتهم إلا بإهوان
وحرشونى بسماياتهم فغيروا نية إخوانى
لو استطاعوا الوشوا بى إلى السمريخ فى الشهب وكيوان
وقال أيضاً :

غربت بدى أمةً وبمحمد خالقتها غربت
وعبدت ربى ما استطعت ومن بريته بريت
وفرنتى الجهال حا سدة على وما فريت

سعروا على فلم أحسنّ وعندهم أنى هريت
قال الصفدى : « أما الموضوع على لسانه ، فلعلمه لا يخفى على من له أُبٌّ .
وأما الأشياء التي دونها ، وقال بها في لزوم مالا يلزم ، وفي استغفر واستغفري ،
فما فيه حيلة . وهو كثير ، فيه ما فيه من القول بالتعطيل والاستخفاف بالنبوات .
ويحتمل أنه ارعوى وتاب بعد ذلك كله . وحكى لى عن الشيخ كمال الدين
ابن الزملكاني أنه قال في حقّه : هو جوهرة جاءت إلى الوجود وذهبت » .
اتهى كلام الصفدى . قلت : أما استغفر واستغفري فلم أقف عليه ؛ فإن كان
ما فيه يشبه ما في لزوم مالا يلزم ، فسيرد عليك ما يزيل الشك فيه .
وقال ابن الوردي في تاريخه : « وأنا كنت أتعصب له لكونه من المعرة ،
ثم وقفت له على كتاب استغفر واستغفري فأبغضته ، وازدادت عنه نفرة ،
ونظرت له في كتاب لزوم مالا يلزم ، فرأيت التبرى منه أحزم ؛ فإن هذين
الكتابين يدلان على أنه كان لما نظمهما عالماً حائراً ، ومدبذباً نافرأ ، يقرّ فيهما
أن الحق قد خفي عليه ، ويودّ لو ظفر باليقين فأخذه بكلتا يديه ؛ كما قال في
مرثية أبيه :

طلبت يقيناً من جهينة عنهم ولم تخبريني يا جهين سوى الظن
فإن تمهيدني لأزال مسائلا فإني لم أعط الصحيح فأستغني

ثم وقفت له على كتاب « ضوء السقط » الذي أملاه على الشيخ أبي عبد الله
محمد بن محمد بن عبد الله الأصبهاني ، الذي لازم الشيخ إلى أن مات ، ثم أقام
بحلب ، يروى عنه كتبه ، فكان هذا الكتاب عندي مصلحاً لفساده ، موضعاً
لرجوعه إلى الحق وصحة اعتقاده ؛ فإنه كتاب يحكم بصحة إسلامه مؤلاً ، ويتلو لمن
وقف عليه بعد كتبه المتقدمة (وللاخرة خير لك من الأولى) ؛ فلقد ضمن هذا

الكتاب ما يثلج الصدر، ويلذ السمع، ويقر العين، ويسر القلب، ويطلق اليد، ويثبت القدم؛ من تعظيم رسول الله صلى الله عليه وسلم خير بريته، والتقرب إلى الله بمدائح الأشراف من ذريته، وتبجيل الصحابة، والرضا عنهم، والأدب عند ذكر ما يفتق منهم، وإيراد محاسن من التفسير، والإقرار بالبعث والإشفاق من اليوم العسير، وتضليل من أنكر المعاد، والترغيب في أذكار الله والأوراد، والخضوع للشريعة المحمدية وتعظيمها. وهو خاتمة كتبه، والأعمال بخواتمها. وقد يعذر من ذمه، واستحل شتمه، فانه عول على مبادئ أمره، وأوسط شعره؛ ويعذر من أحبه، وحرّم سبّه، فانه اطلع على صلاح سرّه، وما صار إليه في آخر عمره؛ من الإنابة التي كان أهلها، والتوبة التي تجبّ ما قبلها. وكان يقول رحمه الله: أنا شيخ مكذوب عليه. « . انتهى كلامه بنده .

قلت: وليس في لزوم ما لا يلزم ما يصل للإنسان إلى حد التبري منه، كما ذكر الشيخ، والبيتان اللذان رواهما من مرثية أبيه لا يدلان على ما ذهب إليه، وإنما مراده أن علم الغيب محجوب عنه، فلا يدري عن أبيه: أهو في شقاء أم نعيم، وهما مثل قوله من هذه القصيدة:

جَهَلْنَا فَلَمْ نَعْلَمْ عَلَى الْحَرَصِ مَا الَّذِي يُرَادُ بِنَا وَالْمَلْمُومِ ذِي الْمَنْ
قال شارحه أبو يعقوب النحوي: « وهذا على معنى أن أمر السعادة والشقاوة مطوى عن العباد، وأن الأمور كلها بمشيئة الله تعالى، وهي مستورة؛ ولهذا كره السلف أن يقول القائل: أنا مؤمن حقا، بل أنا مؤمن إن شاء الله تعالى؛ لا على معنى الشك في الإيمان والاعتقاد، بل على معنى الخوف من سوء العاقبة، وخفاء علم الله تعالى في ذلك، وانظروا أمر الخاتمة ». انتهى .

وذكر ابن الوردي في تاريخه أيضاً: أن حساده أغروا به وزير حلب، فجهز

لإحضاره خمسين فارساً ليقبله ، فأنزله أبو العلاء في مجلس له بالمعرة ، فاجتمع بنوعه إليه ، وتألّموا لذلك ، فقال : إن لي ربا ينعني ، ثم قال كلاماً منه ما لا يفهم ، وقال : الضيوف ، الضيوف ! الوزير ، الوزير ! فوقع المجلس على الخمسين فارساً فماتوا ، ووقع الحمام على الوزير بحلب فمات ؛ فمن الناس من زعم أنه قتلهم بدعائه وتهجده ، ومنهم من زعم أنه قتلهم بسحره ورصده . وهذه القصة رواها صاحب السكوكب الثاقب بزيادة تفصيل ، فذكر عن الغزالي أنه قال حدثني يوسف بن علي بأرض الهركار ، قال : دخلت معرة النعمان ، وقد وشى وزير محمود بن صالح صاحب حلب إليه بأن المعري زنديق لا يرى إفساد الصور ، ويزعم أن الرسالة تحصل بصفاء العقل ، فأمر محمود بحمله إليه من المعرة ، وبعث خمسين فارساً ليحملوه ، فأنزله أبو العلاء دار الضيافة ، فدخل عليه عمه مسلم بن سليمان ، وقال : يا ابن أخي قد نزلت بنا هذه الحادثة ، والمالك محمود يطلبك ، فإن منعناك عجزنا ، وإن أسلمناك كان عاراً علينا عند ذوى النمام ، ويركب تنوخ الذك والمار ، فقال : هوّن عليك يا عمّ ، ولا بأس عليك ؛ فلي سلطان يذب عني . ثم قام فاغتسل وصلى إلى نصف الليل ، ثم قال لغلامه : انظر إلى المريح أين هو ؟ فقال : في منزلة كذا وكذا . فقال : زنه واضرب تحته وتدا ، وشد في رجلي خيطاً ، واربطه إلى الوتد . ففعل غلامه ذلك ، فسمعناه وهو يقول : يا قديم الأزل ، يا علة العلل ، يا صانع الخلوقات ، وموجد الموجودات ؛ أنا في عزك الذي لا يرام ، وكنفك الذي لا يضام ، الضيوف الضيوف ، الوزير الوزير ! ثم ذكر كلمات لا تفهم ، وإذا بهدة عظيمة ، فسأل عنها ، فقيل : وقعت الدار على الضيوف الذين كانوا بها ، فقتلت الخمسين . وعند طلوع الشمس وقعت بطاقة من حلب على جناح طائر : لا تزعجوا الشيخ ، فقد وقع الحمام على الوزير . قال يوسف بن علي : فلما شاهدت

ذلك ، دخلت على المعري فقال : من أين أنت ؟ فقلت : من أرض الهركار ،
فقال : زعموا أنني زنديق ، ثم قال : اكتب . وأملى عليّ أبياتا من قصيدة أولها :
استغفر الله في أمني وأوجالي من غفلي وتوالي سوء أعمالي
ثم ساق صاحب الكوكب الثاقب سبعة أبيات من هذه القصيدة .
وسأوردها بتمامها عند الكلام على منظومه ؛ فإنها من شعره المفقود . وهذه القصة
رواها غير واحد ، فلم يذكرها رصده للمريخ كما هنا ، وهو الأشبه بمذهب أبي
العلاء ؛ فإن من يقف على كلامه في المنجمين وتقبيح أعمالهم ، يحكم بأن هذا من
الموضوع عليه . والله أعلم .

والخلاصة أن الذي ظهر لي من مطالعة مؤلفاته ، أنه لم يكن ملحدا كما يزعمون ،
بل كان مؤمنا بالله وكتبه ورسله ، وإنما كانت تقع له بعض الأحيان أحوال يضيق
بها صدره ، فينفث نفثات يوم ظاهرها ، وكان الأولى به تركها . وهي مهمما
بلغت من الشناعة والبشاعة لا تصل إلى الكفر والإلحاد ، بل فيها ما إذا قارنته
بما قاله في ضده لظهر لك جليا أنه لم يرد ما سبق إلى ذهنك فيه من أول وهلة ؛
كإنجائه تارة على الديانات ، ومدحه لها تارة أخرى ؛ فإنك لو قابلت بين القولين
بإمعان ، لأقنعت بأنه لم يرد بالذم الديانات نفسها ، بل أراد منتحلها المتاجرين
بها ، وكثير ما هم في كل زمن .

وإنما أتى الرجل من جهة حسدته وشائثيه ، وولوع جماعة منهم بتقويله
مالم يقل ، وإشهاره بما كانوا ينظمونه على لسانه من أقوال المعطلة والزنادقة ؛
حتى صارت الأذهان لكثرة ما وقر فيها من ذلك ، إذا ألقى إليها شيء من
شعره فيه إبهام ، انصرفت إلى إساءة الظن به . وسيرد عليك من أقواله
ما وافق أقوال مشهورى المتصوفة ، وكبار الزهاد ، حذو القذة بالقذة . إلا أنها

كتبت لهم ، وكتبت عليه ، والله في خلقه شؤون . ولهذا اقتصر في فصول معتقده على ما أثبتته في مؤلفاته دون ما روى عنه غير معزو لشيء منها ، وغالبه سخافات يتنزه شعر أبي العلاء عنها ، ولا يخفى وضعها على ذى لب ، كما قال الصفدى . كنسبتهم إليه قول القائل :

إذا ما ذكرنا آدمًا وفعاله وتزويجه بنتيه لابنيه في الخنا
علمنا بأن الخلق من نسل فاجر وأن جميع الناس من عنصر الزنا
وهذا كلام لا يصدر إلا من معتوه فقد رشده ، وحاشا لأبي العلاء أن يكونه . ولا يخلو قائله من أحد أمرين : إما أن يكون مقرًا بالشرائع ، علما بأن زواج الأخت بأخته لم يكن محرماً في شريعة سيدنا آدم عليه الصلاة والسلام ، فيكون قوله هذا ضرباً من الهذيان والهوس . وإما أن يكون منكرًا لها ، فيكون ذكره الزنا لا معنى له ، فإن معرفة الحلال والحرام لا تتأتى إلا من الشرائع . فضلاً عما في البيتين من بذاءة وقلة أدب تنبو عنهما نفس أبي العلاء . ولست منكرًا أنه ذكر سيدنا آدم عليه السلام في لزوم مالا يلزم بما كنت أحب له عدم ذكره ، إلا أنه لا يبلغ في شناعته إلى هذا الحد ؛ وغاية ما فيه لومه عليه السلام على أكله من الشجرة ، وتسببه في أذى ذريته في الدنيا بخروجه من الجنة . وسيأتى الكلام على ذلك في فصل مستقل . وقد رد على هذين البيتين القاضى أبو محمد الحسن بن أبي عقامة اليمنى بقوله :

لعمرك أما فيك فالقول صادق وتكذب في الباقي من شطأ أودنا
كذلك إقرار الفتى لازم له وفي غيره لغو كذا جاء شرعنا
وليت القاضى تثبت من نسبة البيتين قبل تكلفه الرد بهذا الشعر الركيك .
ونسبوا إليه أشياء أخرى من هذا القبيل أضربت عن ذكرها تفادياً عن

الاشتغال بالعبث ، إلا أن ألم ببعضها إلماما فيما يأتي من الفصول لمناسبة . كما
أنى لم أتعرض لما أخذ عليه في سقط الزند ؛ لأنه لا يخرج عن كونه من الغلو
الواقع لكثير من الشعراء ، وقد كفانا مؤونة البحث فيه بقوله في خطبته :

« وما وجد لي من غلو علق في الظاهر بآدمي ، وكان مما يحتمله صفات الله
عز سلطانه ، فهو مصروف إليه ، وما صالح مخلوق سلف من قبل أو غير أو لم يخلق
بعد ، فإنه ملحق به ، وما كان محضا في المئين لاجهة له ، فأستقيل الله العثرة فيه »
وقد أورد شارحه في التنوير بعض أبيات من ذلك في شرح الخطبة . ومما
لم يذكره قوله ، وهو عندي أشنع ما في سقط الزند :

باهت بمهرة عدناناً قتلت لها لولا الفصيصة كان المجد في مضر
فهذا ولا ريب من محض المئين الذي لاجهة له ، وقد استقال الله العثرة فيه ،
والله يغفر لمن يشاء . وما عدها ليس فيه شيء سوى الغلو المفرط . على أنه لم يأت
به إلا في أبيات معدودة لا تتجاوز العشرة ، ولكن القليل من هذا كثير . وعندى
أن لا وجه لاغتفاره لقائله ، وفي غيره من الكلام مندوحة عنه . ولعله سرى
لأبي العلاء من أبي الطيب المتنبي ؛ فقد كان ولوعا بهذا النوع . ومنه قوله :

لو كان ذو القرنين أعمل رأيه لما أتى الظلمات صرن شموسا
أو كان صادف رأس عازر سيفه في يوم معركة لأعيا عيسى
أو كان لج البحر مثل يمينه ما انشق حتى جاز فيه موسى
سامح الله أبا الطيب ، ما كان أغناه عن هذا الغلو المقوت ، مع قدرته على نظم
ما هو أوقع في النفوس ، وأخف على الأسماع ؛ وأقبح منه قبول مندوحة له ،
وإجازته عليه . ولا أدري ما كان عذر المعز في قبوله قول ابن هاني :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

اللهم إلا أن يكون ما نقل عن القوم من دعوى الألوهية في الباطن صحيحا .
وما في سقط الزند دون هذين القولين بمراحل .
وقد رأيت أبا العلاء شدد النكير على ابن هاني وأضرابه في رسالة الغفران ،
واستقبح منهم مثل هذا الغلو ، فلعله رجع عنه .

وقد عقد الثعالبي فصلا في يتيمة لما أخذ على أبي الطيب ، جاء فيه بأشياء
مجموجة . ومع هذا فلم يلهجوا بكفاره كما فعلوا مع أبي العلاء ؛ وذلك لما وقر
في النفوس من شهرته بالزندقة ، كما ذكرت آنفا ، حتى كادوا يلصقون به كل
شعر من هذا القبيل . وقد رأيت بعضهم يروى له قول المتنبي :

أَعْيَاةُ الدِّينِ أَنْ تُحْفُوا شَوَارِكُمْ يَا أُمَّةً ضَحَكَتْ مِنْ جَهْلِهَا الْإِئِمَّةُ

هذا وديوان أبي الطيب مشهور متداول في الأيدي ، فاظنك بغير المشهور ؟
وكذلك أبو نواس لما كان مشهورا بالإجادة في وصف الخمر ، نسبوا إليه فيها
ما لم يقله ، فكثير المنحول في شعره . ونقل عن بعض العلماء أنه كان يقول : أو شك
هؤلاء الرواة أن ينسبوا للمجنون كل شعر فيه ليلي . وقوله هذا ينبغي للأديب أن
يتنبه له ، فلا يقدم على نسبة قول لقائل بسبب اسم اشتهر به ، ولهج بذكره ، في
شعره ؛ فقد كان للشعراء أسماء شائعة بينهم خفت على ألسنتهم ، وحلت في
أفواههم ، فكانوا كثيرا ما يأتون بها زورا ، نحو : ليلي ، وهند ، وسامى ،
ودعد ، ولبنى ، وعفراء ، وأروى ، وريتا ، وفاطمة ، ومية ، وعلوة ، وعائشة ،
والرباب ، وجمل ، وزينب ، وأشباههن . ذكر ذلك ابن رشيق ، ثم قال : وأما
عزة وبثينة فقد حماهما كثير وجميل ، حتى كأنما حرمتا على الشعراء . انتهى .
وكما اشتهر بعض الشعراء بأسماء ، اشتهر غيرهم بفنون وأنواع غلبت عليهم ،
وسهلت على نفوسهم ، فأجادوا القول فيها ؛ كأبي نواس في الخمر ، والبحترى في

الطيب ، وابن المعتز في التشبيهات ، وديك الجن في المرآة ، وأبي الطيب في الأمثال والحكم ، وابن الرومي في الهجاء . بل رأيت بعض شعراء غلبت عليهم ألفاظ استعملوها كثيرا ، كأُم دُفَر عند المعري ، وابن ودَى عند الأمير محمود سامي باشا البارودي . ومن تتبع شعر كل شاعر ، ربما لا يعدم أمثاله فيها . فيكون اقتصارنا على ما أثبتته أبو العلاء في مؤلفاته ، أدعى إلى الإنصاف ، وأبعد عن الاعتساف .

واعلم ، أرشدك الله ، أني لم أنتصر له في بعض المواضع جنوحا إلى عصبية ، أو استرسالا مع هوى . ولكنني وقفت في الكثير من أقواله على اعتقاد صحيح ، وإيمان ثابت لا يخالطه شك . فكان تأويل ما عداها بما يحتمله اللفظ ، أولى من التسرع إلى إكفار مؤمن ، والحكم عليه بالزندقة ؛ خصوصا وأن ما يدل على إيمانه صريح في لفظه ، والذي يوهم محتمل لوجهين ، ختمه على ما يوافق الصريح من أحد وجهيه أحق وأصوب . فإذا رأيت شيئا من ذلك فلا تتسرع في الإنكار على ، بل عليك بتحسين الظن ، ومراجعة النظر ، تجد ما قلته غير بعيد . وحسبك ما أثاروه على الإمام أبي حامد الغزالي في قوله : ليس في الإيمان أبدع مما كان ، حتى وضعوا فيه المؤلفات ، وشغلوا الناس بالترهات . ولا شك أنه لم يُرد بقوله هذا ما ذهبوا إليه وتأولوه . وأي مسلم يخالجه ريب في عقيدة هذا الإمام ، وهو حجة الإسلام ؟

ولله درّ أبي العلاء حيث يقول :

جِوَارُكَ هَذَا الْعَالَمَ الْيَوْمَ نَكْبَةٌ عَلَيْكَ وَلَيْسَ الْبَيِّنُ عَنْهُ مُبَسَّرًا
سَيَعْلَمُ ذَلِكَ الْمُدْعَى صِحَّةَ الْهُدَى مَتَى كَانَ حَقٌّ أَيْنًا كَانَ أَخْسَرَا

ويقول :

لحى الله قوماً إذا جئتهم بصدق الأحاديث قالوا كفروا

ويقول :

أما في الأرض من رجلٍ لبيبٍ فيفرق بين إيمان وكفر

وقال أيضاً :

لا تقيد لفظي عليّ فإني مثل غيري تكلمني بالجاز

ومثله قوله :

وليس على الحقائق كلّ قولي ولكن فيه أصناف الجاز

فصل في معتقده في الله

من زعم أن أبا العلاء كان من منكرى وجود الإله جل وعلا ، فقد زعم باطلا ، وأسرف في الشطط ، ودل على جهله بحقيقة معتقده . وهيهات أن تنهض له حجة ، أو يجد لزمعه مستندا ، لو طالبناه بالدليل .

ونحن مثبتون في هذا الفصل من أقواله ما ليس وراءه متسع لطاعن ، أو مجال لمتقول ، وبادئون منها بثلاثة أقوال ، ربما خفي المراد منها على كثيرين ، فأولوها على غير ما ينبغي أن تؤول ، ثم تتبعها بما يكشف الرين عن عقيدة الرجل في خالفه .

أولها قوله :

قُلْتُمْ لَنَا صَانِعُ حَكِيمٌ قُلْنَا : صَدَقْتُمْ ، كَذَا نَقُولُ
زَعَمْتُمُوهُ بِإِلَهِ مَكَانٍ وَلَا زَمَانَ إِلَّا فَقُولُوا
هَذَا كَلَامٌ لَهُ خَبِيٌّ مَعْنَاهُ لَبَسَتْ لَنَا عُقُولُ

وليس في هذه الأبيات إنكار لوجود الإله ، وحسبك منها قوله : « قلنا صدقتم ، كذا نقول » ، لكن يؤخذ من ظاهرها إثبات الزمان والمكان له تعالى ، وهو ما لا يقول به إلا الجسمة وأضرابهم ، تنزه الله عما يقولون . وقد ذكر صاحب المعاهد التنصيص أن الفخر الرازي أورد هذه الأبيات في كتابه الموسوم بالأربعين ، وأعقبها بقوله : « وقد هذى هذا في شعره » ، وقد وقفت على نسختين من هذا الكتاب فلم أجده قال ذلك ، فلعل العبارة تحرفت على صاحب المعاهد ، فتوهم

منها ما ذكره . ولما كان المقام يحتاج إلى تفصيل لاستيضاح ما يرمى إليه أبو العلاء ، اقتضى أن ننقل إليك عبارة الأربعين ، ثم نعلقها بما ظهر لنا في هذه الآيات . قال « الفخر » في مبحث حدوث العالم ، وإيراد شبهات المخالفين وردها : « السؤال الرابع : إذا قلنا كان الله موجودا في الأزل ، وسيكون موجودا في الأبد ، فقولنا كان يفيد أن أمرا كان موجودا وحاصلا ، وقد انقضى وما بقي . ويكون يفيد أن أمرا سيصير موجودا وحاصلا ، وبعد ما حصل . فإذا كل ما يصدق عليه أنه كان وسيكون ، فهو محكوم عليه بكونه متجددا متغيرا ، فذات الله تعالى لما كان واجب الدوام ، ممتنع التغير ، وجب أن لا يصدق عليه ألبتة أنه كان في الأزل ، وسيكون في الأبد ، وأنه كائن الآن . ثم لما جربنا عقولنا وجدناها حاكمة بأن كل ما لا يصدق عليه أنه كان قبل وسيكون بعد وأنه كائن الآن ، فهو عدم محض . وعند هذا قال المنكرون إنكم لما أثبتتم ذاته منزهة عن الجهات والأيون والأوضاع ، خرج هذا الإثبات عن العقل ، واقترب من العدم المحض ؛ ثم إنكم لما أثبتتموه منزها عن أن يصدق عليه قولنا كان ويكون وهو كائن ، فهذا تصريح بالعدم المحض . فإن أدخلتموه تحت قولنا كان ويكون وهو كائن ، اقتضى ذلك الحكم بكونه متجددا متغيرا ، فكيف الخلاص من العقد الحيرة ، والمضايق المضلة العمية . ونظم المعري هذا المعنى في شعر له فقال . . . » انتهى .

ثم أورد الآيات ، إلا أنه روى مكان قوله « زعمتموه » ، « ثم زعمتم »
وشرع في الرد على هذا السؤال . فقال :

« الجواب عن السؤال الرابع : وهو قوله إن كل ما يصدق عليه كان ويكون فهو متجدد متغير ، فنقول : المراد من قولنا كان ويكون استمراره مع الأزمنة

الآتية والأزمنة الماضية ، من غير أن يكون متغيرا بحسب تغير هذه الأزمنة ؛ وهذا المعنى لا يدركه إلا العقل الذي نوره الله تعالى بنور هدايته ، وإن كان الوهم والخيال يعجزان عنه . » انتهى كلامه .

ثم ساق حجج المشايخ على بقاء الصانع بما يخرج عن قصدنا هنا . ولا يخفى ما في قوله إن هذا المعنى لا يدركه إلا العقل الذي نوره الله بنور هدايته . فإذا علمت هذا ، ثم علمت أن مذهب السلف رضى الله عنهم في الصفات النقلية ، كالاستواء على العرش ، والنزول إلى السماء الدنيا ونحوها ، أنها صفات ثابتة وراء العقل ما كلفنا إلا اعتقاد ثبوتها والتصديق بها من غير تفسير ولا تأويل ، مع اعتقاد عدم التجسيم والتشبيه ، لثلا يصاد النقل العقل — ظهر لك أن عبارة أبي العلاء إنما ترمى إلى هذا المعنى ، وتشير إلى هذا القصد ؛ فراه أن مثل هذه الأمور لا تنسع العقول لإدراكها ، بل هي مما استأثر الله بعلمه . وليس في الآيات ما يمنع من حملها على ذلك . بل كيف يتصور في الرجل اعتقاد التجسيم ونحوه ، وهو القائل في موضع آخر :

تَعَالَى اللَّهُ وَهُوَ أَجَلُّ قَدْرًا مِّنَ الْأَخْبَارِ عَنَّهُ بِالتَّعَالِي

ومن يذهب في التنزيه إلى هذا الحد لا يتصور فيه اعتقاد التجسيم . ثم اعلم أن مذهب السلف يرجحه كثيرون من المتكلمين . وكان الإمامان مالك والزهرى يقولان به ، بل هو عقيدة الإمام أحمد بن حنبل وأتباعه إلى يومنا هذا . وإنما رجحوه لما فيه من السلامة من تعيين معنى قد يكون غير مراد له تعالى ، وهو الأوفق لحل العامة عليه ، صيانة لعقولهم عن الزلل ، كما فصله الإمام الغزالي في « إجماع العوام ، عن علم الكلام » . وقد وقفت على فصل للفخر الرازى في تفصيل هذا المذهب ، ذكره في تفسيره الكبير عند قوله تعالى : « ثُمَّ اسْتَوَى

عَلَى الْعَرْشِ » ، مع أن هذا الإمام من كبار الأشعرية الفائلين بالتأويل .

ولله در الإمام خميس بن علي الواسطي حيث يقول :

تَرَكَتُ مَقَالَاتِ الْكَلَامِ جَمِيعَهَا لِمُبْتَدِعٍ يَدْعُو بِهِنَّ إِلَى الرَّدِّ
وَلَا زَمْتُ أَصْحَابَ الْحَدِيثِ لِأَنَّهُمْ دُعَاةٌ إِلَى سُبُلِ الْمَكَارِمِ وَالْهُدَى
وَهَلْ تَرَكَ الْإِنْسَانُ فِي الدِّينِ غَايَةَ إِذَا قَالَ قَلَدْتُ النَّبِيَّ مُحَمَّدًا

على أن كثيرا من أئمة الكلام أيضا يرجحون مذهب الخلف في تأويلهم هذه الصفات تأويلا يليق بجلال المولى عز وجل ، لما في هذا المذهب من مزيد الإيضاح والرد على الخصوم . ولكل من أصحاب المذهبين وجهة لا يريدون بها إلا الوصول إلى الحق ، فرضى الله عنهم أجمعين ، وجزاهم عنا أحسن الجزاء .

الثاني من الأقوال : قوله :

أَمَّا إِلَهُهُ فَأَمْرٌ لَسْتَ مُدْرِكُهُ فَأَحْذَرُ لِحَيْبِكَ فَوْقَ الْأَرْضِ إِسْخَاطًا
وليس في هذا أيضا إنكار لوجود الله تعالى ، وإنما فيه الإيماء إلى عجز البشر عن إدراك كنه ذاته تعالى . ولعمري ما نطق إلا بالصواب . وأين مخلوق ضعيف لا يصل إلى إدراك كنه نفسه من الوصول إلى هذا المقام ؟ وفي كتاب تأييد الحقيقة العلمية للسيوطي ، قال شارح منازل السائرين في بيان عجز العقول عن إدراك الذات المقدس ، وترك الفكرة في ذلك : « يعرف العبد أن عقله يعجز عن إدراك كل الموجودات من المخلوقات فضلا عن خالقها ، وقد مجزت العقول عن إدراك الخاصية التي يجذب بها المغناطيس الحديد ، والسَّمْمُونِيَا الأَخْلَاطَ الصَفْرَاوِيَّةَ ، إلى غير ذلك ، مع القطع بوجودها . فإذا عرف العبد عجزه ، وأيس من الوقوف على غاية مطلبه ، حمله ذلك على التمسك بحبل التعظيم والإجلال ، وسلم بذلك من الوقوع في شيء من الاختلال . » . انتهى .

وفيا نقل عن أمير المؤمنين كرم الله وجهه أنه كان يقول : « التوحيد أن لا تتوهمه » ويقول : « كل ما أدركته فهو غيره » . وكان الصديق رضى الله عنه يقول : « يا من غاية معرفته القصور عن معرفته » . أما قوله تعالى : « لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ » ، فالأكثر على حمل البصر هنا على الجارحة ، من حيث إنها محل القوة . وقيل هو إشارة إلى ذلك وإلى الأوهام والأفهام . فالبيت على هذا عقد لمعنى هذه الآية الكريمة . وقريب منه قوله من قطعة أخرى :

وإنَّ إلهي إله السما رَبُّ الْوَهُودِ وَرَبُّ النَّبِيِّ
سَأَلْتُ الْمُحَدَّثَ عَنْ شَأْنِهِ فَمَا زَالَ يَصْغَفُ حَتَّى أُرْتَبِكُ

الثالث : قوله :

مَتَى عَرَضَ الْحِجَابَ لِلَّهِ ضَاقَتْ مَذَاهِبُهُ عَلَيْهِ وَإِنْ عَرَضَتْهُ

ومعناه ظاهر بيّن ، يشبه ما في القول السابق . وقد فسره بعضهم بقوله : « أى لا يزال عقل الإنسان يتسع مجاله في الأمور ، ويستعمل أنواع القياس ؛ حتى ينتهى إلى الله تعالى . فإذا انتهى إليه ضاقت المذاهب عليه ، فلم يعلم أكثر من أنه سبحانه خالق مخلوقات . » . انتهى .

وقد أحسن أبو العلاء في قوله بعد هذا البيت :

وَقَدْ كَذَبَ الَّذِي يَغْدُو بِعَقْلِ لِتَصْحِيحِ الشَّرُوعِ وَقَدْ مَرَضَتْهُ

الشروع : جمع شرع . قال بعض الفضلاء : « مَرَضُ الشَّرَائِعِ أَنْ تَخْفَى أسبابها ، فلا يُوقَفُ على حقائقها ، فيظن الناظر فيها أنها فاسدة ، وإنما الفاسد عقله ، لأنه تعاطى سرّاً غامضاً ليقف عليه . » . انتهى .

قلت : فليت المتبجحين كل يوم بإصلاح الدين الإسلامى ليوافق روح العصر كما يزعمون ، ينظرون نظرة في هذا البيت ، نسأل الله لنا ولهم الهداية .

وبعد ، فليس في كلام أبى العلاء ما يؤم نقصا في حق الخالق سبحانه وتعالى ، فضلا عن إنكار وجوده ، غير هذه الأقوال الثلاثة . وقد عرفت أنها ليست في شيء من ذلك البته . فلم يبق إلا أن نسرد لك عيون أقواله الدالة على حسن معتقده في خالقه . قال :

لِلْمَلِيكِ الْمَذَكَّرَاتُ عَبِيدُ وَكَذَلِكَ الْمُؤَنَّثَاتُ إِمَامُهُ
فَالِهَالُ الْمَنِيْفُ وَالْبَدْرُ وَالْقَرُّ قَدْ وَالصَّبِيحُ وَالثَّرَى وَالْمَاءُ
وَالثَّرِيْبَا وَالشَّمْسُ وَالنَّارُ وَالنُّنْ رَةُ وَالْأَرْضُ وَالضَّحَى وَالسَّمَاءُ
هَذِهِ كُلُّهَا لِرَبِّكَ مَا عَا بِكَ فِي قَوْلِ ذَلِكَ الْحُكْمَاءُ
خَلَنِي يَا أُخِيَّ اسْتَفْغِرُ اللَّهَ فَلَمْ يَبْقَ فِيَّ إِلَّا الذَّمَاءُ
وقال :

إِذَا قِيلَ لَكَ أَخَشَّ اللَّهُ مَ مَوْلَاكَ فَقُلْ : آرَا

آرَا : كلمة فارسية ، معناها : نعم . وقال :

بِعِلْمِ إلهِي يُوجَدُ الضَّعْفُ شِيَمِي فَلَسْتُ مُطِيقًا لِلغُدُوِّ وَلَا الْمَسْرِي
غَبْرَتُ أُسَيْرَا فِي يَدَيْهِ وَمَنْ يَكُنْ لَهُ كَرَمٌ تَكْرَمُ بِسَاحَتِهِ الْأَمْرِي
أَصْبِحُ فِي الدُّنْيَا كَمَا هُوَ عَالِمٌ وَأَدْخُلُ نَارًا مِثْلَ قَيْصَرَ أَوْ كِسْرِي
وَإِنِّي لِأَرْجُو مِنْهُ يَوْمَ تَجَاوَزِ فَيَأْمُرُنِي ذَاتَ الْيَمِينِ إِلَى الْيُسْرِي
وَإِنْ أُعِفَ بَعْدَ الْمَوْتِ بِمَائِرِ بِي فَاَحْظَى الْأَذَى وَلَا يَدِي الْخُسْرِي

اليسرى هنا : من اليسر ضد العسر ، وليست من اليسار ضد اليمين . وقال :

اللَّهُ لَأَرَيْبَ فِيهِ وَهُوَ مُحْتَجِبٌ بَادٍ وَكَلٌّ إِلَى طَبَعٍ لَهُ جَذْبًا
وقال :

لَأَتَكْذِبَنَّ فَإِنْ فَعَلْتَ فَلَا تَقُلْ كَذِبًا عَلَى رَبِّ السَّمَاءِ تَسْكِبًا
فَاللَّهُ قَرْدٌ قَادِرٌ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُدْعَى لِأَدَمَ صُورَةٌ أَوْ تُحْسَبَا
وَإِذَا أَنْتَسَبْتَ فَقُلْتَ إِنِّي وَاحِدٌ مِنْ خَلْقِهِ فَكُنْفِي بِذَلِكَ تَنْسَبَا
وفي معنى البيت الثاني قوله من قطعة أخرى :

مَا زَالَ مُلْكُ اللَّهِ يَطْهَرُ دَائِبًا إِذْ آدَمُ وَأَبُوهُ فِي الْأِضْمَارِ
لعله أراد بأبيه : التراب الذي خلق منه ، وفي بعض النسخ : وبنوه ،
وهو ظاهر .

وقال :

وَلَمْ يَحْبِبْنِي أَحَدٌ نِعْمَةً وَلَكِنَّ مَوْلَى الْمَوَالِي حَبَا
نَصَحْتِكَ فَأَعْمَلْ لَهُ دَائِبًا وَإِنْ جَاءَ مَوْتُ فَقُلْ مَرَّ حَبَا
ومن طمعه في عفو ربه ، قوله :
أَرَى أَبَّ مِرْآةِ اللَّيْبِ وَمَنْ يَكُنْ مَرَانِيهِ الْإِخْوَانُ يُصَدِّقُ وَيُكْذِبُ
أَأَخْشَى عَذَابَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَادِلٌ وَقَدْ عِشْتُ عَيْشَ الْمُسْتَضَامِ الْمُعَذَّبِ
ومثله قوله :

وَمَا أَنَا بِأَيْسُّ مِنْ عَفْوِ رَبِّي عَلَى مَا كَانَ مِنْ عَمْدٍ وَسَهْوٍ
ومثله قوله أيضاً :

لَمْ لَأَأْوَمِّلُ رَحْمَةً مِنْ قَادِرٍ وَالشُّوْلُ يُطَلِّبُ فِي السَّحَابِ الْأَسْوَلِ

وقال يذكر خوفه من العقاب :

طُوبَى لِمَوْءُودَةٍ فِي حَالِ مَوْلِدِهَا
يَا رَبِّ هَلْ أَنَا بِالْغُفْرَانِ فِي ظَعْنِي

وقريب منه قوله :

قَدْ فَنَى الْوَقْتُ فَمَا حِيلَتِي
إِنْ خَتَمَ اللَّهُ بِمُفْرَانِهِ

وقال في خوفه وطمعه :

أَمَّا الْحَيَاةُ فَلَا أَرْجُو نَوَافِلَهَا
رَبِّ السَّمَاءِ وَرَبِّ الشَّمْسِ طَالِعَةً

ولله دره سيث يقول :

لَيَفْعَلِ الدَّهْرُ مَا يَهْمُهُ بِهِ
لَأَنْيَأَسُ النَّفْسُ مِنْ تَفَضُّلِهِ

وقال :

أَرَى أَنْكِفَاتِي إِلَى الْمَنَابِيَا
أَثْبِتُ لِي خَالِقًا حَكِيمًا

وقال :

سُبْحَانَ مَنْ بَرَأَ النُّجُومَ كَأَنَّهَا
لَوْ شَاءَ رَبُّكَ صَيَّرَ الشَّرْطَيْنِ مِنْ
وَالتَّاجُ تَقْوَى اللَّهِ لَأَمَا رَصَعُوا

وقال من أخرى :

فَزِعُوا إِلَى ذِكْرِ الْمَلِكِ وَحَسْبِهِمْ
أُنْسًا بِذَلِكَ فِي الضَّمِيرِ الْوَاجِبِ

وقال :

أَحَازِرُ السَّيْلِ وَمَنْ لِي بِمَنْدِ جِقَاقٍ إِذَا أَسْمَعَنِي رَعْدَهُ
وَالْوَقْتُ لَا يَفْتَأُ فِي مَرِّهِ مُقَرَّبًا مِنْ أَجَلٍ بَعْدَهُ
فَرَأَيْتُ الْخَالِقَ بِالْغَيْبِ فِي أَلِيمَةِ وَالنَّيْمَةِ وَالنَّمِيمَةِ

أراد الهيئة من القيام والنوم والقيود ، خفاء بها على فعلة بكسر الأول . وهو عقد لمعنى قوله تعالى : « الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقَعُودًا وَكَلَىٰ جُنُوبِهِمْ » ومعنى الآية ، والله أعلم : الذين لا يغفلون عنه تعالى في عامة أوقاتهم ، كما ذهب إليه بعض المفسرين .

وقال أبو العلاء :

إِذَا كُنْتَ مِنْ فَرْطِ السَّفَاهِ مُعْطَلًا فَيَا جَاحِدُ أَشْهَدُ أَنِّي غَيْرُ جَاحِدٍ
أَخَافُ مِنَ اللَّهِ الْعُقُوبَةَ أَجَلًا وَأَزْعُمُ أَنَّ الْأَمْرَ فِي يَدِ وَاحِدٍ
فَإِنِّي رَأَيْتُ الْمَلْحِدِينَ تَعُودُهُمْ نَدَامَتُهُمْ عِنْدَ الْأَكْفِ الْوَّاحِدِ

ليت شعري كيف يُرْمَى بالإلحاد من يخاطب الملحدين بمثل هذا الكلام ؟ وفيهم يقول أيضاً :

أَمَّا الْمُجَاوِرُ فَارَعَهُ وَتَوَقَّعَهُ وَأَسْتَعْفِ رَبِّكَ مِنْ جِوَارِ الْمَلْحِدِ
لَيْسَ الَّذِي جَحَدَ الْمَلِيكَ وَقَدْ بَدَّتْ آيَاتُهُ بِأَخْرِ لِمَنْ لَمْ يَجْحَدِ

ويقول :

إِذَا مَا أَلْحَدَتْ أُمَّهُ بِجَهْلٍ فَقَابِلْهَا بِتَوْحِيدِ السُّيُوفِ
كَأَنَّا فِي سَجَايَانَا نُقُودٌ كَثِيرَاتُ الْبَهَارِجِ وَالزُّيُوفِ
وَهَذِي الْأَرْضُ لِلْمَلِكِ الْمَرْجِيِّ نِلْمٌ بِهَا كَالْمَامِ الضُّيُوفِ

وقال :

تَعَالَى اللَّهُ كَمَا مَلَكَ مَهْيَبٍ نَبَدَّلَ بَعْدَ قَصْرِ ضَيْقٍ لَخَدِي
أَقْرَبُ بَأْسٍ لِي رَبًّا قَدِيرًا وَلَا أَلْقَى بَدَائِعَهُ بِمَجْدِي

وقال :

بِوَحْدَانِيَّةِ الْعَلَامِ دِنًا فَذَرَّنِي أَقْطَعُ الْأَيَّامَ وَخَدِي
سَأَلْتُ عَنِ الْحَقَائِقِ كُلِّ قَوْمٍ فَمَا أَلْفَيْتُ إِلَّا حَرْفَ جَعْدِي
سِوَى أَنِّي أُرْوُلُ بِغَيْرِ شَكِّ فِي أَيِّ الْبِلَادِ يَكُونُ لَخَدِي

وقال :

وَلَقَدْ وَجَدْتُ وِلَاءَ قَوْمٍ سُبَّةً فَأَصْرِفْ وِلَاءَكَ لِلْقَدِيمِ الْمُوجِدِ

وقال :

يُسْمُونَ بِالْجَهْلِ عَبْدَ الرَّحِيمِ وَعَبْدَ الْعَزِيزِ وَعَبْدَ الصَّمَدِ
وَمَا بَلَّغُوا أَنْ يَكُونُوا لَهُ عِبِيدًا وَذَلِكَ أَقْصَى الْأَمْدِ
وَلَكِنَّهُ خَالِقُ الْعَالَمِي نَ ذَائِبِ أَجْزَائِهِمْ وَالْجَمْدِ
تَعَمَّدَهُ يُغْنِكَ بِالْهَدْيِ أَنْ تُدْرَسَ مُغْنِيهِمْ وَالْعُمْدِ

المغني، والعمد : كتابان أحدهما في علم الكلام ، والآخر في الأصول ، وهما للقاضي عبد الجبار بن أحمد ، من كبار أئمة المعتزلة ، المتوفى سنة خمس عشرة أوست عشرة وأربعمائة . ولأبي محمد عبد الله بن العباسي الرامهرمزي المعتزلي كتاب اسمه المغني أيضاً ، إلا أن ذكره مقروناً بالعمد يدل على أن المراد الأول .

وقال أبو العلاء :

كَمْ غَيَّرْنَا بِأَمْرِ خَطِّ حَادِثَةٍ وَرَبَّنَا اللَّهُ لَمْ تُلْمِمْ بِهِ الْغَيْرُ

وقال :

مَا زَالَ رَبِّكَ ثَابِتًا فِي مُلْكِهِ يَنْبِئِي إِلَيْهِ لِلْعِبَادِ جُورًا

وقال :

وَالْجَهْلُ أَغْلَبُ غَيْرَ عَلِمِ أَنَّنَا نَفَى وَيَبْقَى الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ

وقال في الإقرار بالذنوب من قطعة :

غُفِرَ أَنْ رَبِّكَ قَلَّ مَا فَعَلَ الْفَقَى مَا لَيْسَ مُخَوِّجُهُ إِلَى أَسْتِغْفَارِ

صدق والله ، فغفرانك اللهم . وقال :

رَجَزَتْ بِتَسْبِيحِ الْمَلِيكِ حَمَامَةٌ بِالشَّامِ تُوطينُ أَوْ تَحُلُّ حِجَازًا

وَالطَّيْرُ مِثْلُ الْإِنْسِ تَعْرِفُ رَبَّهَا وَتَرَى بِهَا الشُّعْرَاءَ وَالرُّجَازَا

وقال في معناه :

سَبَّحَ اللَّهُ نَاعِبٌ ، صَوْتُهُ : غَا قِ ، وَكُدْرِيَّةٌ تَصِيحُ : قَطَا

وقال :

صَنَعَتْ عَزَّتِ الْأَنَامَ بِلُطْفِ وَعَزَّتْهَا إِلَى الْقَدِيرِ الْعَوَازِي

مَلِكُ أَنْشَأَ السَّمَوَاتِ فَالْبَدُ رُ لَدَيْهِ فِي صُورَةِ الْجَلُوزِ

كَمْ لَهُ كَوْكَبٍ أَبْرَّ وَأَزَّ الذِّ اسَ حَتَّى سَطَا عَلَى أَبْرَازِ

وقال :

لَنَا رَبٌّ وَلَيْسَ لَهُ نَظِيرٌ يُسَيِّرُ أَمْرَهُ جَبَلًا وَيُرْسِي

تَظَلُّ الشَّمْسُ مَا هِنَةَ لَدَيْهِ فَمَا بَلِقَيْسُ أُمِّ مَاسِتِ بَرَسِ

وقال :

إِذَا كُنْتَ بِاللَّهِ الْمُهَيِّمِينَ وَائْتَمَّا فَسَلِّمْ إِلَيْهِ الْأَمْرَ فِي الْاَلْفِظِ وَاللَّحْظِ

يُدَبِّرُكَ خَلْقُ يَدِيرُ مَقَادِرًا تُحِطُّ بِكَ إِحْسَانَ الْعَالَمِ أَوْ تُحِطُّ بِكَ

وقال :

وَسِرْتُ عُجْرِي إِلَى قَبْرِي عَلَى مَهَلٍ مَا نَحْنُ أُمَّ مَا بَرَأَيَا عَالَمٍ كَثِيرٍ
وَقَدْ دَنَوْتُ فَحَقَّ الْخَوْفُ وَالْهَلَعُ فِي قُدْرَةٍ بَعْضُهَا الْأَفْلَاكُ يَبْتَلِعُ

وقال :

نَدِينُ بَانَ اللَّهُ وَتَرُّ وَخَوْفُهُ رَشَادٌ فَصَلُّوا الْوَيْتَ فِي الدَّهْرِ وَالشَّمْعَا

وقال :

الْأَرْضُ لِلَّهِ مَا اسْتَحْيَى الْحُلُولُ بِهَا أَنْ يَدْعَوْهَا وَهُمْ فِي الدَّارِ أُضْيَافُ
تَنَازَعُوا فِي عَوَارِي قَبِينَهُمْ نَبْلُ حُطَامٍ وَأَرْمَاحٍ وَأَسْيَافُ
إِنْ خَالَفُوكَ وَلَمْ يَجْرُرْ خِلَافَهُمْ شَرًّا فَلَا بَأْسَ إِنْ النَّاسُ أَخْيَافُ

أخياف : أى مختلفون ، ومنه : إخوة أخياف ، إذا كانت أمهم واحدة وآباؤهم شتى ؛ فإذا كانوا لأب واحد من أمهات شتى ، قيل : هم أبناء علات .

وقال فى معنى ما تقدم :

هُوَ الْفَلَكُ الدَّوَارُ أَجْرَاهُ رَبُّهُ عَلَى مَا تَرَى مِنْ قَبْلِ أَنْ تَجْرِيَ الْفَلَكُ
لَهُ الْعِزُّ لَمْ يَشْرَكْهُ فِي الْمَلِكِ غَيْرُهُ فَيَا جَهْلَ إِنْسَانٍ يَقُولُ : لِي الْمَلِكُ

ومثله قوله :

وَيَقُولُ دَارِي مَنْ يَقُولُ وَأَعْبُدِي مَهْ فَالْعَبِيدُ لِرَبِّنَا وَالِدَارُ

وقوله أيضا :

وَالْمَلِكُ لِلَّهِ مَنْ يَطْفَرُ بِنَيْلِ غَنَى بَرْدُهُ قَسْرًا وَتَضْمَنَ نَفْسَهُ الدَّرَكَ
لَوْ كَانَ لِي أَوْ لغيري قَدْرٌ أَنْمَلِيهِ مِنْ التُّرَابِ لَكَانَ الْأَمْرُ مُشْتَرَكًا

ذكر الإسحاق في تاريخه أن السلطان سليما العثماني لما فتح مصر نزل بالروضة في مكان أعد له بالمقياس ، ونقل عن القطبي أنه رأى هذين البيتين مكتوبين بخطه بأعلى المقياس على الرخام الأبيض كتابة خفية لا تكاد تظهر إلا بالتأمل ، ومرقوم تحتها : كتبه الفقير سليم . ثم قال : ولعمري إن كان هذان البيتان من نظم المرحوم فهما في غاية البيان والبراعة ، ونهاية في الشعر العربي الفصيح المنسجم ؛ وإن كان تمثل بهما فهما أيضاً مرتبة عالية في حسن التمثيل ولطف الاستحضار . انتهى . قلت : أما كونهما له فقد ثبت خلافه ؛ فلم يبق إلا أنه تمثل بهما . وما هو بكبير على فضل هذا السلطان واطلاعه . وسلاطين آل عثمان ، وإن اشتهر عنهم قلة الاهتمام باللغة العربية ، فقد نبغ منهم جماعة فيها . منهم : السلطان محمد الفاتح ؛ وفضله في الاشتغال بالعربية غير منكور . ومن شيوخه المولى خواجه زاده ، قرأ عليه متن عز الدين الزنجاني في التصريف ؛ وكانت العلماء تجتمع عنده للمناظرة ، وتعجبه مباحثاتهم . ويحكى أنه كان في صغره غير مهتم بالطلب ، فأمر والده السلطان مراد المولى شمس الدين الكوراني بالتشديد عليه ، فصدع بأمره ، حتى ضربه مرة ضرباً موجعاً ، ولم يزل به حتى ختم القرآن الكريم في مدة يسيرة . ومنهم : السلطان مراد الثالث ابن سليم المتوفى سنة ١٠٠٣ . كان أجمل أهل بيته علماً وأدباً وذكاءً وفهماً . اشتغل بالتصوف وبرع فيه ، ونظم الشعر باللغات الثلاث : الفارسية والتركية والعربية . ومنهم : السلطان أحمد بن محمد حفيد السلطان مراد المار ذكره . كان من فضلاء وقته ، مال للأدب والمحاضرات ، ونظم الشعر بالتركية . وما يروى له من الشعر العربي قوله :

ظَنِيَّ بِصَوْلٍ وَلَا وُصُولٍ إِلَيْهِ جَرَحَ الْفُؤَادَ بِصَارِمِي لَحْظِيهِ

مَا قَامَ مُعْتَدِلًا وَهَزَّ قَوَامَهُ إِلَّا تَهْتَكْتَ السُّتُورَ عَلَيْهِ
يَسْقِي الْمُدَامَةَ مِنْ سُلَافَةِ رِيْقِهِ وَيَخْصُنَا بِالْفُنُجِ مِنْ جَفْنِيهِ
عَيْنَاهُ نَزَجِسْنَا وَآسُ عِذَارِهِ رِيْحَانْنَا وَالْوَرْدُ مِنْ خَدَيْهِ
يَاشَعْرُ فِي بَصْرِي وَلَا فِي خَدِّهِ إِنِّي أَغَارُ مِنَ النَّسِيمِ عَلَيْهِ
عَجَبِي لِسُلْطَانٍ يُعِزُّ بَعْدَلِهِ وَيَجُورُ سُلْطَانُ الْغَرَامِ عَلَيْهِ
لَوْ لَا أَخَافُ اللَّهَ نَمَّ جَعِيمُهُ أَعْبَدْتُهُ وَسَجَدْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ

والبيتان الأخيران من قصيدة لابن رزيك الشيعي ، أتى بهما السلطان علي

سبيل التضمن .

رَجَعَ إِلَى شِعْرِ أَبِي الْعَلَاءِ

فن دلائل إيمانه بالله ، وتفويضه الأمر إليه ، قوله :

رَدَدْتُ إِلَى مَلِكِ الْخَلْقِ أَمْرِي فَلَمْ أَسْأَلْ مَتَى يَقَعُ الْكُفُوفُ
فَكَمْ سَلِمَ الْجَهْلُولُ مِنَ الْمَنَابَا وَعَوَجِلَ بِالْحِمَامِ الْفَيْلَسُوفُ
وقال :

وَالرُّوحُ طَائِرٌ مَخْبِسٌ فِي سِجْنِهِ حَتَّى يَمُنَّ رَدَاهُ بِالْإِطْلَاقِ
سَيَمُوتُ مُحَمَّدٌ وَيَهْلِكُ آلُكَ وَيَبْدُومُ وَجْهُ الْوَاحِدِ الْخَلَّاقِ
وقال :

أَزُولُ وَلَيْسَ فِي الْخَلَّاقِ شَكٌّ فَلَا تَبْكُوا عَلَيَّ وَلَا تُبْكُوا
خُذُوا سِيرِي فَهِنَّ لَكُمْ صَلَاحٌ وَصَلُّوا فِي حَيَاتِكُمْ وَزَكُوا

وقال :

تَسَمَّتْ رِجَالُ بِالْمُلُوكِ سَفَاهَةً وَلَا مُلْكَ إِلَّا لِلَّذِي خَلَقَ الْمُلْكَ

أَرَى فَلَكَ مَا دَارَ إِلَّا لِحِكْمَةٍ فَلَا تَنْسَ مَنْ أَجْرَى لِجَاجِنِكَ الْفَلَكَ
وقال :

إِنَّ يُرْسِلِ النَّفْسَ فِي اللَّذَاتِ صَاحِبَهَا فَمَا يُخَلِّدُنْ صُعْلُوكًا وَلَا مَلِكًا
وَمَنْ يُطَهِّرْ بِخَوْفِ اللَّهِ مُهْجَتَهُ فَذَلِكَ إِنْسَانٌ قَوْمٍ يُشْبِهُ الْمَلِكَا
وقال :

شِفَاهُ مَا بَكَ أَعْيَانِي وَأَعْيَاكَ فَارْجُ الَّذِي هُوَ أَبْدَانِي وَإِيَّاكَ
مَا لِي أَرَاكَ غَيْبًا لَسْتُ تَقْدِرُ أَنْ تُحْصِيَ خُطَاكَ فَهَلْ تُحْصِي خَطَايَاكَ
وقال :

يَا خَالِقَ الْبَدْرِ وَشَمْسِ الضُّحَى مُعْوَلِي فِي كُلِّ حَالِي عَلَيْكَ
وَ كُلُّ مَلِكٍ لَكَ عَبْدٌ وَمَا يَبْتَقِي لَهُ مُلْكٌ فَيُدْعَى مُلِيكَ
قَدْ رَامَتِ النَّفْسُ لَهَا مَوْتًا فَقُلْتُ: مَهْلًا، لَيْسَ هَذَا إِلَيْكَ
إِنَّ الَّذِي صَاغَكَ يَقْضِي بِمَا شَاءَ وَيُحْضِي فَارْجُرِي عَازِلِيكَ
الْبَحْرُ فِي قُدْرَتِهِ نُغْبَةُ وَالْفَلَكَ الْأَعْظَمُ فِيهَا فُلِيكَ
وقال :

إِلَهَ الْأَنَامِ وَرَبَّ الْغَمَامِ لَنَا الْفَقْرُ دُونَكَ وَالْمَلِكُ لَكَ
وقال :

فَلَا تَسْأَلِ الْمَرْءَ الْغِنَى عَطَاءَهُ وَرَجَّ الْغِنَى مِنْ رَبِّكَ الْمُتَعَالِي
وقال :

أَمَا تَرَى الشُّهْبَ فِي أَفْلَاكِهَا أَنْتَقَلَتْ بِقُدْرَةٍ مِنْ مَلِيكَ غَيْرِ مُنْتَقِلِ
وقال :

نَمُوتُ لِأَنَّآ حُلْفَاءَهُ نَقْصِ وَيَبْتَقِي مَنْ تَفَرَّدَ بِالْكَمَالِ

وقال :

حَكْمٌ تَدُلُّ عَلَى حَكِيمٍ قَادِرٍ مُتَفَرِّدٍ فِي عِزِّهِ بِكَمَالٍ

وقال :

تَوَهَّمْ بَعْضُ الْقَوْمِ وَهَمًا فَاصْلُوا بَيِّنَ أُمُورٍ بَاتَ يَتَّبِعُهَا الْوَهْمُ
جَهْلِنَا ، وَلَسْ كُنَّا لِلْخَلَائِقِ صَانِعٌ أَقْرَبَ بِهِ فَسَلُّ مِنْ الْقَوْمِ أَوْ شَهْمُ

وقال في رد تأثير الأشياء لله تعالى :

وَقَدْ يَا مَرُ اللهُ أَلْكِهَامَ إِذَا نَبَا فَيَغْفِرِي وَقَدْ يَنْهَى الْحُسَامَ فَيَكْتُمُ

وزاد هذا المعنى وضوحا بقوله وأجاد :

لَوْ يَنْطِقُ السَّيْفُ نَادَى لَيْسَ لِي عَمَلٌ إِذَا قَضَى مَالِكُ الْأَفْلَاكِ أَنْضَانِي
مَتَى أَرَادَ فَصَفْحَايَ اللَّذَانِ هُمَا بِحَرِّ الرَّدَى مِنْ حِيَاضِ الْمَوْتِ حَوْضَانِ
وَإِنْ كَهَمْتُ فَأَمْرُ اللهِ أَكْهَمَنِي وَإِنْ مَضَيْتُ فَأَمْرُ اللهِ أَمْضَانِي

وقال :

مَا فِي بَنِي آدَمَ غَنِيٌّ بَلْ كُلُّهُمْ مُقْتَرٌ عَدِيمٌ
يَعْنِي الَّذِي مَالَهُ فَنَاءٌ وَذَلِكَ الْوَاحِدُ الْقَدِيمُ

وقال :

رَأَيْتُ سَجَايَا النَّاسِ فِيهَا تَظَالِمٌ وَلَا رَيْبَ فِي عَدْلِ الَّذِي خَلَقَ الظُّلَمَاءَ

وقال :

فَسَادٌ وَكَوْنٌ حَادِثَانِ كِلَاهُمَا شُهَيْدٌ بَأَنَّ الْخَلْقَ صُنْعُ حَكِيمٍ

وقال :

أَبَا الْقَدْرِ الْمَتَّاحِ تَدِينُ جِنَّ تَسْمَعُ غَيْرَ هَائِبَةِ الرَّجُومِ

وَتَعْلَمُ أَنَّ مَا لَمْ يُقْضَ صَعْبٌ
يَأْذِنُ اللَّهُ بِنَفْدِ كُلِّ أَمْرٍ
يَجُوزُ بِحُكْمِهِ مَوْتُ الثَّرِيَّا
وَكَمْ وَجَمَ الْفَقِي مِنْ بَعْدِ ضِحْكَ
فَمَا تَخْشَى الْمَنِيَةَ فِي الْهَجُومِ
فَنَهْنِهِ فَيُضْ أَدْمِعَكَ الشَّجُومِ
وَأَنَّ تَبْقَى السَّمَاءُ بِلَا نَجُومِ
وَأُضْحِكَ بَعْدَ إِفْرَاطِ الْوُجُومِ

وقال :

إِذَا مَدَحُوا آدَمِيًّا مَدَحُ
وَذَاكَ الْغَنِيِّ عَنِ الْمَادِحِينَ
لَهُ سَجَدَ الشَّامِخُ الْمُشْمَخِرُ
وَمَغْفِرَةُ اللَّهِ مَرَجُوهُ
تُ مَوْلَى الْمَوَالِي وَرَبِّ الْأَمَمِ
وَلَكِنْ لِنَفْسِي عَقَدْتُ الدَّئِمَ
عَلَى مَا بَعْرَنِيهِ مِنْ شَمَمِ
إِذَا حُبِسَتْ أَعْظَمِي فِي الرَّسَمِ

وقال :

أَدِينُ رَبِّ وَوَاحِدٍ وَتَجَنَّبِ
قَبِيحَ الْمَسَاعِي حِينَ يَظْلَمُ دَائِرُ
وقال :

إِذَا مَا شِئْتُمْ دَعَا وَخَفَضَا
وَلَا يُعْقَدُ لَكُمْ أَمَلٌ بِمَخْلُقِ
فَعِيشُوا فِي الْبَرِيَّةِ خَامِلِينَ
وَبَيْتُوا لِلْمُهَيِّمِينَ آمِلِينَ

وقال :

مَطِيَّتِي الْوَقْتُ الَّذِي مَا امْتَطَيْتُهُ
وَمَا أَحَدٌ مَعْطَى وَاللَّهُ حَارِمِي
بِوُدِّي وَلَكِنَّ الْمُهَيِّمِينَ أَمَطَانِي
وَلَا حَارِمِي شَيْئًا إِذَا هُوَ أَعْطَانِي

وقال :

لَعَمْرِي لَخَيْرُ الذُّخْرِ فِي كُلِّ شِدَّةِ
وَلَا مَلِكٌ إِلَّا لِلَّذِي عَزَّ وَجْهَهُ
إِلَهُكَ تَرْجُو فَضْلَهُ وَأَلَاهُ
وَدَامَتْ عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ عِلَاهُ

وقال :

تَهَجَّدَ مَعَشَرَ لَيْلًا وَنَمْنَا وَفَازَ بِحِنْدِسٍ مُتَهَجِّدُوهُ
إِلَهُكَ أَوْجَدَ الْأَشْيَاءَ جَمْعًا فَلَا يَفْخَرُ بِشَيْءٍ مُوجِدُوهُ
وَرَبُّكَ أَنْجَدَ الْأَقْوَامَ حَتَّى بَنَى أَعْلَى الْقُصُورِ مُنْجِدُوهُ
فَمَجَّدَهُ فَلَمْ يَخْسَرْهُ أَنْاسٌ أَنَابُوا لِلْعَلِيكِ وَمَجَّدُوهُ

ولنختم هذا الفصل بقوله :

تَشَابَهَتْ الْأَشْيَاءُ طَبَعًا وَصُورَةً وَرَبُّكَ لَمْ يُسْمَعْ لَهُ بِشَبِيهِ

هذه أقوال من يتهمه المتخردون بإنكار الإله ، سقناها إليك لتكرر النظر فيها المرة بعد المرة ، ثم نكلك إلى محاسبة نفسك ، ومحكمة فكرك ؛ هل ترى فيها غير التوحيد والتنزيه ، وإجلال اسمه تعالى ، والطمع في رحمته ، والخوف من عقابه ، والخص على التقوى ، والإنكار على الملحدين ؟

ولا نخالك بعد ذلك إلا منصفه ، إن كنت من المخلصين .

فصل في معتقده في النبوات والرسل

يتهم الكثيرون أبا العلاء بجدد النبوات ، وعدم الإيمان بالبعث والنشور ؛ وكثيراً ما يعتمدون تحريف كَلِمِهِ ، أو صرف ظاهره إلى غير مراده ، افتياتاً عليه ، وانتصاراً لمدعاهم . فضلاً عما وضعوه على لسانه من الكذب والبهتان ، كما أثبتته نَقْلَةُ أخباره . وقد مر بك حديثه مع القاضي المنازى ، وكيف اقتضبه الرواة ليثبتوا إلحاده وإنكاره للآخرة . ونقل ياقوت والسلوى عن القاضي أبي يوسف عبد السلام القزويني أنه قال : « قال لي المعري : لم أهبج أحداً قط . فقلت : صدقت ، إلا الأنبياء عليهم السلام ! فتغير لونه . أو قال : وجهه . اهـ » ولا أدري ماذا يثبتته هذا الحديث أو ينفيه .

وإليك ما ذكره العلامة ابن الوردي في تمة المحتصر ، وهو من أدق الباحثين في أمره . قال : « قال لي يوماً بعض أصحابي من الأمراء ذوى الفهم : كيف كان أبو العلاء في اعتقاد البعث ؟ فأنشدته قوله :

فَيَا وَطَنِي إِنْ فَاتَنِي مِنْكَ سَابِقُ مِنْ الدَّهْرِ فَلْيَنْعَمِ إِسَّا كَيْنِكَ أُنْبَالُ
وَإِنْ أَسْتَطِيعَ فِي الْحَشْرِ آتِكَ زَائِرًا وَهَيْهَاتَ ، لِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَشْعَالُ

وبلغني أن بعضهم زعم أن أبا العلاء كان ينكر النبوات ، فهذا مردود بقول أبي العلاء :

عَجِبْتُ وَقَدْ جُرَّتِ الصَّرَاةُ رِفْلَةً وَمَا خَصِصْتُ مِمَّا تَسْرُبَاتِ أذْيَالُ
أَعْمَتِ إِلَيْنَا أُمُّ فِقَالِ بْنِ مَرْيَمَ فَعَلْتُ ، وَهَلْ يُعْطَى النُّبُوَّةَ مَكْسَالُ

وقوله في شريف :

يَا ابْنَ الدِّيِّ بِلِسَانِهِ وَبَيَانِهِ هُدَى الْأَنَامُ وَنَزَلَ التَّنْزِيلُ

عَنْ فَضْلِهِ نَطَقَ الْكِتَابُ وَبَشَّرَتْ بِقُدُومِهِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ

وقال في الشريف أبي إبراهيم العلوي الموسوي :

يَا ابْنَ مُسْتَعْرِضِ الصُّفُوفِ بِمَدْرٍ وَمُيَبِّدِ الْجُمُوعِ مِنْ غَطَفَانِ
أَحَدِ الْخَمْسَةِ الَّذِينَ هُمْ الْأَغَاةُ رَاضٍ مِنْ كُلِّ مَنْطِقٍ وَالْمَعَانِي
وَالشُّحُوصِ الَّتِي خُلِقْنَ ضِيَاءَ قَبْلَ خَلْقِ الْمَرِيخِ وَالْمِيزَانِ
قَبْلَ أَنْ تُخْلَقَ السَّمَوَاتُ أَوْ تُنْشَأَ مَرَّ أَفْلَاكُوهِنَّ بِالذُّورَانِ
وَإِفْقَ أَسْمُ ابْنِ أَحْمَدَ اسْمَ رَسُوْلِ اللَّهِ لَمَّا تَوَافَقَ الْمُعْنِيَانِ
يَا أَبَا إِبْرَاهِيمَ قَصَّرَ عَنْكَ الشُّهُرُ لَمَّا وَصِفْتَ بِالْقُرْآنِ
أَشْرِبَ الْعَالَمُونَ حُبَّكَ طَبْعًا فَهَوَ فَرَضٌ فِي سَائِرِ الْأَدْيَانِ

وقوله :

أَيَدْفَعُ مُعْجِزَاتِ الرُّسُلِ قَوْمٌ وَفِيكَ وَفِي بَدِيهَتِكَ أَعْتِبَارُ

انتهى كلام ابن الوردي . وما ذكره من الشعر منقول من سقط الزند .
ولقائل أن يقول ما السكم تنتصرون للرجل بكلامه في سقط الزند ، وهو لم يقصد
به بياناً لمذهبه ، أو شرحاً لمعتقده ، بل جرى فيه مجرى الشعراء في أفانينهم
الشعرية ، وأخرجه مخرج هيامهم في كل واد من القول وضرب من الخيال ؛
وهم كما تعلمون يجوزون الكذب ، ويقولون ما لا يفعلون ؛ فشأنه في ذلك شأنهم
ودعواه دعواهم ؛ فإذا مدح شريفاً لم يكن له بد من تقديس آبائه ، والإقرار
لجدهم عليه الصلاة والسلام بالنبوة والرسالة ، تعظيماً لشأن الممدوح ؛ كما لا مندوحة
له في الرثاء عن وصف ما لقيه المرثي من التكريم في جنات النعيم ، ليكون قوله
مقبولاً لدى من يخاطبهم ، وأدعى للحظوة عندهم ، وإن لم يكن هو معتقداً له .

وما يقال في هذا يقال في غيره ، وإلا للزمكم أنه كان على غير ما تدعون له من الزهد والتقوى ، لما أثبتته في هذا الديوان من الغزل والتشبيب وبكاء الشباب والفخر ، وهي والزهد على طرفي نقيض . فلو اقتصرتم على ما في لزوم ما لا يلزم ونحوه من الكتب التي وضعها لبيان فلسفته وآرائه ، سلمتم من مثل هذا النقد . ونقول في رد ذلك : ربما كان لما ذكرت وجه من الصحة ، إلا أننا لما رأيناكم أخذتم الرجل على بعض ما جاء في هذا الديوان ، واستدرجتم به إلى الطعن في عقيدته ، مع أنه لا يخرج عن الغلو المألوف للشعراء كما بيناه آنفاً — استجزنا أيضاً أن نحجكم بما جاء فيه من صريح ذكر الحشر ، والإيمان بالرسول وإثبات المعجزات لهم عليهم السلام . وشتان ما بين حجبتينا . على أن ما ادعيتموه لا يصح الحكم به على مطلق شعر بقوله الشاعر ، وإلا فالويل للشعر والشعراء بعدئذ .

وبعد ، فإننا لم نحكم لأبي العلاء بصحة إيمانه بالرسول والنبوات إلا من أقواله المثبتة لذلك ، المصرحة به . فلا ريب في أن ما يوهم في ظاهره نقيضها من أقواله الأخرى ، مؤول بما يحتمله لفظه ؛ وكثير منها لم يرد به الطعن على الأديان نفسها ، بل أراد أهلها ومنتحليها ، لتفريطهم فيها أو إفراطهم ، كما صرح به في أقوال أخرى ، سنأتي عليها في هذا الفصل .

وقد رأيت بعض المتعصبين عليه يظفر بالبيت الموهم ، فيرويه فداً من غير نظر لما قبله أو بعده . ولو تدبر ذلك لظهر له مراده ، ولم يجد سبيلاً للطعن عليه . على أننا مع هذا لا نبرئه رحمه الله من بعض سقطات زلَّ بها لسانه ، ليس فيها جحد للنبوات ، ولكن ذكرها لا يخلو من شناعة . فكان الأولى له التنادي عن نظمها في هذا السمت . ولا مشاحة في عذر من أنكر عليه فيها ، وإنما

كلامنا فيمن يرميه بالإلحاد ، وهو براء منه ، بدليل ما ذكرناه من كلامه
وما سنذكره .

أما من استدل على إنكاره النبوات ، وتحكيمه العقل في التحسين
والتقبيح ، بقوله :

عَلِمَ الْكَائِنَاتِ فِي كُلِّ وَجْهِ أَوْلَ عِنْدَهُ السَّمَاكُ صَبِيُّ
خَالِقُ النَّيِّرَاتِ مَا يَتَغَابَى أَلْ عَبْدُ لَكِنَّهُ ضَعِيفُ غَيْبِ
أَيْهَا أَلْغُرِّ إِنْ خُصِصَتْ بِعَقْلِ فَاسْأَلْنَهُ فَكَلُّ عَقْلٍ نَبِيُّ

فقد أخطأ المرعى ، ونكب عن سبيل القصد ، فإن مراده بقوله « فكل
عقل نبي » أن العقل كاف في الإخبار والدلالة على وجود صانع لهذه الكائنات ،
ولا عذر للعبد في جهله بخالقه ، مادام له عقل ينظر به ويستخبره ، كما يدل عليه
سياق الأبيات عند التأمل .

وهذه المسألة من المسائل التي قام فيها الخلاف بين أئمة الكلام ، وانقسم
فيها أهل السنة إلى قسمين . فذهب جمهور الماتريدية وعامة مشايخ سمرقند إلى أنه
تعالى لو لم يبعث للناس رسولا لوجب عليهم بمقولهم معرفة وجوده تعالى ووحدته
واتصافه بما يليق به من الحياة والعلم والقدرة وغيرها ، وكونه محدثا للعالم ؛ وهو
أيضا أرجح قولى الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه . وذهب جمهور مشايخ الأشاعرة
إلى أنه لا يجب إيمان ولا يحرم كفر قبل بعث الرسل . ولا يرد على الأول أنه
لو كان العقل حجة كافية ما أرسل الله الرسل ، ولا اكتفى به ؛ لأنه يقال في جوابه :
لما كان أمر البعث والجزاء مما يشكل على العقل وحده ، إلا بعظيم تأمل فيه ،
وكذلك أنواع العبادات والحدود ونحوها لا تنال بمجرد العقل — كان إرسال

الله تعالى رسله وإنزال كتبه ، لبيان ذلك . وأصل الخلاف إنما هو في الإيمان بالله ، لافي أحكام الشرائع . فإن قيل لو كان العقل كافياً في ذلك لاقتصرت الشرائع على بيان ما ذكرتم ، ولم تتعرض لأحكام الإيمان بالله تعالى وتنزيهه ، واتصافه بصفاته اللائقة وبحوها ، اكتفاء بدلالة العقل عليها . قلنا : كان ذلك لزيادة التمكين وتممة البيان ، من قبيل توارد الأدلة وتعاقبها . فإنه تعالى لم يدعنا والبيان بآية واحدة ، بل منَّ علينا سبحانه بآيات متكررة . وكذلك لم يدعنا ورسولاً واحداً من أول الأمر إلى آخره ، والحجة كانت قائمة بالواحد ، كما بقيت بنبينا عليه الصلاة والسلام إلى القيامة ؛ فلا يدل ذلك على أن الرسول الواحد أو الآية الواحدة لم يكونا حجة كافية .

هذا محصل ما ذكروه في هذا المقام ، ولكل من الفريقين أدلة من الكتاب والسنة يحتاج بها لمذهبه ، فاطلبها إن شئت في كتب الكلام ، خصوصاً فيما ألف منها في الخلاف بين الماتريدية والأشعرية ؛ وانظرها أيضاً في كتب التفسير عند قوله تعالى : « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً » .



